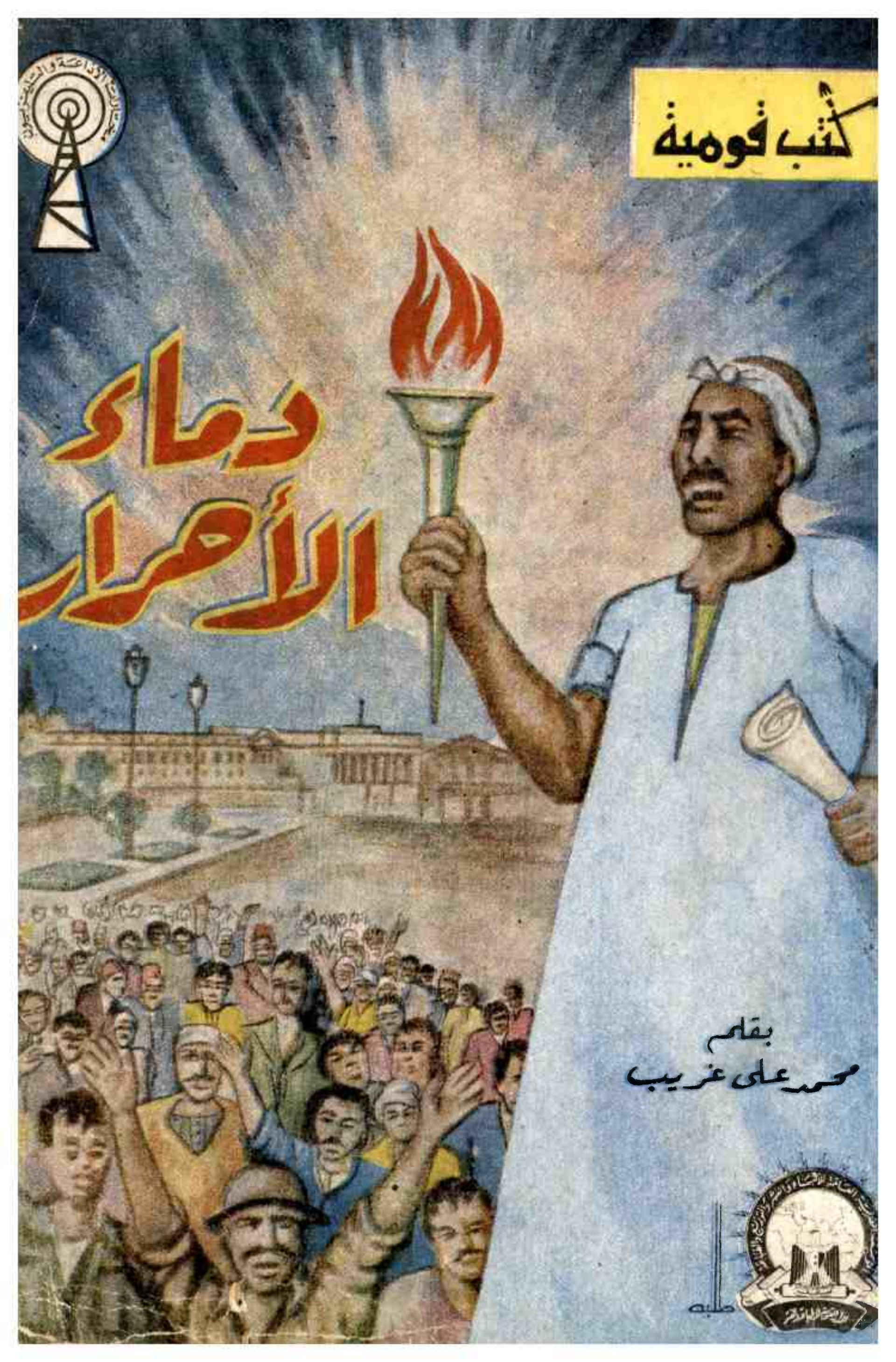


كتب قومية
دماء الأحرار
بقلم
محمد علي غريب

كتب قومية



بقلم
محمد علي غريب



مقدمة

هذه قصة الاقطاع في مصر ، وهي قصته في كل مكان٠٠ حيث يصبح مئات الملايين من الكادحين عبيدا ارقاء لاترتقى حياتهم الى حياة العجماوات . وفى اشد العصور ازدهارا بالمدنيةوالحضارة كان الاقطاع يحكم هذه الملايين وفق شريعة الغاب .

ولقد ولدت فى جحيم الاقطاع ، فى نجع حمادى ، حيث يملك ((افندينا)) يوسف كمال بضعة عشر الف فدان . ويملك معها رقاب مئات الالوف من البشر . وكانت الدولة تعينه على أن يبطش بهؤلاء المساكين ماشاءت له نزواته .

ولم يكن احد يتوقع ان يزول الاقطاع فى مصر ، بجرة قلم ولكن شاء ربك ان يتم ذلك على يدى جمال عبد الناصر الذى استطاع بايمانه وطهارة قلبه ومتانة خلقه ان يصل بالثورة الى ذروتها ، ونحن نقرر هذا لانسعى الى تمليقه . فليس جمال عبد الناصر بالرجل الذى يتلقف المدائح ويسعى وراء عبارات الحمد والاطراء وكلمات الاعجاب والثناء .

انه فوق هذا كله بطل لم يشهد تاريخ مصر مثيلا له ، وسيأتى اليوم الذى يعرف العالم كله ومصر خاصة هذه البطولة الخالدة وسيقول التاريخ فيها كلمته الحاسمة .

انه لايمكن لغير اولئك الذين عاشوا فى جحيم الاقطاع أن يدركوا حقائق مظالمه البشعة . وقد تمر بجثة رجل احترق . فلا يروعك الا أن ترى هذه الكتلة السوداء . ولكنك لاتدرى مدى عذاب هذا الرجل والنار تطارده فى سائر بدنه .

وكذلك الاقطاع يحسب الذين أبعدهم الله عنه انه مجردنظام سيء .. ويتحدثون عنه كما يتحدثون عن نظام توزيع البطاقات فى اثناء الحروب . ولكن الحروب نفسها ليست اشد فتكا بالبشرية من هذا الغول المسمى بالاقطاع .

والاقطاع عدو العلم والمعرفة . لايحب ان يرى ضحاياه من الزراع يفقهون شيئا فكان يحارب التعليم فى القرى ويضطهدرجاله ويسعى جاهدا الى التضييق عليهم والبطش بهم . وكان له من قوة النفوذ مايفرض على وزارةالتربية والتعليم عرقلة سير التعليم الالزامى فى القرى . فظللنا اكثر من خمسة وعشرين عاما ندفع ملايين الجنيهات دون أن نفيد من ورائها شيئا .

فالثورة بقضائها على الاقطاع ضمنت للتعليم فى القرية استقراره وثباته وللمعلم الاول حياته الهانئة ورسوخ قدميه ولا عجب انيرى المعلم الاول فى الثورة دعامته القوية للطمأنينة بحيث لم يعد الاقطاع يتهدده فى عمله وفى مورد رزقه وفى رسالته بشر صنوف الاذى والعنت .

وحوادث القصة حقيقية شهدت الكثير منها . وعسى أنأكون قد وفقت الى تصوير حياة القرية كما عشتها وعسى ان يكون فى ذلك الجهد مايعين على ادراك حقائق هذه الحياة فى قرانا المصرية ..

فى القصر

سطعت اضواء الفجر على قرية الشيخ (سند) وعبرت الطيور عن ابتهاجها بأغاريد مشجية واستيقظ القرويون وهم يتشبثون ببقايا احلامهم الحلوة كانهم لايريدون ان يحرموا منها وارتمت اقدامهم على الارض تتحسس الاحذية الخشنة لمن يملك منهم حذاء ، وتواثبت القرويات الى عملهن الشاق فى اعداد الافطار وحلب الماشية وارضاع الاطفال . واتخذ الشيوخ والكهول طريقهم الى المسجد يؤدون فريضة الصبح قبل أن تبزغ الشمس ويفكرون — وهم بين يدى الله — جرائم القتل والسرقة والكيد للابرياء ..

وعمرت الطرقات الى الحقول بالدواب والقرويين ، وتبدت مفاتن الطبيعة المجلوة فى اجمل مشاهدها ، وجعلت اعواد الزرع تتمايل وهى تصغى الى وسوسة النسائم وتنفض عنها قطرات الندى وتجلت السماء فى ابدع زينتها فالسحب الرقيقة المندية تتلوى وتتثنى كمالو أنها ترقص .. وراحت جيوش الظلام ترتد وتختفى

هربا من جيوش النور ، ومضى القرويون يثرثرون حول مشاكل الحياة المعقدة وحول ما يعانونه من متاعب تقفل دونهم افواه السبل فلا يستطيعون ان يستمتعوا بمفاتن الطبيعة ولا يستهوى قلوبهم شىء من روائعها وقلّ أن يرفع أحد منهم رأسه الى السماء الا أن يحاول معرفة الوقت .

كان كل شىء ينطق عن حيويته الدافقة حتى قلوب القرويين التى ملاها الهم بأوحاله وشغلت الطيور عن أغاريدها باستخلاص

طعامها من هذه الارض قال احد المفكرين عنها انها تعطينا كل شيء .. الخبز ... والاراء والمعتقدات والاحلام .

وعلى مقربة من الحقول . برز القصر المنيف بطلائه الازرق، ونوافذه السمر قصر صاحب السعادة على بهجت باشا عين اعيان الاقليم ومالك هذه الارض وما عليها من زروع ودواب وآدميين ، والرجل الذى تفعل ابتسامته وتقطيبة جبينه فى مصائر الناس أكثر مما تفعل القوانين ..

ونهض خدم القصر قبل ان تسطع اضواء الفجر يمسحون بظاهر اكفهم النوم من عيونهم ويتثاءبون . وليس لهم من امنية سوى أن يمضى اليوم بخير فلا يضربوا ولا يحرموا من الطعام ولا يسجنوا فى الغرفة المظلمة لمجرد ان يهفو أحدهم هفوة يسيرة كأن يحك بأصبعه وراء أذنه . بل لعله لايأتى أية هفوة ولكن « سيده » يريد ان يتسلى بتاديبه وتعذيبه ..

واستيقظ صاحب السعادة فى هذا الوقت الباكر على غير عادته فان خطبا جسيما حل بالقصر .. تقول : هل التهمته النيران؟ بل حدث ماهو اشنع من ذلك فان كلب صاحبة السعادة المسمى « لولو » يشكو من عسر الهضم ولو استمعت الى صرخاته التى تصك الاسماع . ولو اصغيت الى اناته التى تمزق نياط القلوب، لادركت ماوقع والتمست العذر لصاحب السعادة فى أن يستيقظ مبكرا ..

وهذا الكلب المدعو «لولو» من صنف روسى نادر وقد ادبته صاحبة السعادة سيدته أكمل تاديب . فهو يلعب بالكرة ويلح على من يستلطفه فى أن يقذف بها اليه ويشد طرف ثوب السيدة العجوز التى تحل ضيفا ثقيلا على القصر فيجعلها تدمدم بكلمات تحمل عناصر السخط . وصاحبة السعادة تضحك منها . او يصعد الى البيانو ليدق بذراعيه على اصابعه .. ويخرج انغاما

قد لاتكون فى مستوى الالحان التى يسرقها محمد عبد الوهاب ولكنها تطرب .. أى ان هذا الكلب اللطيف يملك من المزايا مالا **يملك مثلها صاحب السعادة نفسه** .. فلا عجب أن نرى صاحب السعادة مندفعا فى ثورته يصرخ فى وجوه الخدم ويقص عليهم سير آبائهم واجدادهم الخنازير الملاعين فان زوجته لم تنم طوال الليل حزنا على فتاها المدلل وبلغ بها الامر الى حد البكاء عندما تسمعه وهو يصرخ .

وكان صاحب السعادة يبحث عن طبيب او طبيبين أو عشر أطباء يفحصون الكلب المريض ويشيرون بالدواء الناجع . فان رؤية سيدة كريمة المحتد تبكى مما يفتت أكباد كرام المحتد . على أن الطبيب الوحيد الذى عثروا عليه قريبا من القرية كان قد آوى الى فراشه فى الساعة الخامسة صباحا بعد سهرة قضاها فى الشراب وفى لعب القمار . فلم يستطيعوا أن يوقظوه الا حين قالوا له ان صاحب السعادة يطلبه . وكان يعرف ان اغضاب صاحب السعادة معناه طرده من الوظيفة . بل ربما تعرضت حياته للخطر .

ولما سأل الطبيب عن المريض أهو صاحب السعادة ؟ أم صاحبة السعادة فقيل له أنه الكلب .. وعندئذ لم يستطع وهو وحده فى حجرة مغلقة النوافذ والابواب أن يظهر ولو أثرا باهتا من آثار امتعاضه . فماذا عسى ان يصنع طبيب بشرى فى علاج كلب . نعم .. أنه كلب يفوق كثيرين من الآدميين فى ذكائه وظرفه . ولكنه لايقوى على أن يشرح للطبيب علة مرضه .. وماذا يحدث لو مات هذا الكلب بعد ان وصف له الدواء ؟

وللطبيب ثلاثة أطفال لم يتجاوز أكبرهم الخامسة من عمره وهو ليس ميسور الحال وتخيل فى ذهنه صور أطفاله من بعده وهم لايجدون طعام يومهم .. وهم يركضون فى طرقات القاهرة وراء أعقاب السجاير ..

ولكنه على الرغم من ذلك ذهب الى القصر وهو يبتهل الى الله ان ياخذ بيده . ولما وصل الى هناك استقبله صاحب السعادة بنفسه . وتفضل فصافحه ثم تفضل فاذن له بالجلوس فى حضرته .. واقتيد بعد ذلك الى الحجرة التى فيها « لولو» وكان يرقد على السرير الفاخر موليا وجهه نحو الحائط .. دون ان يهتم باحد من الذين وقفوا فى خشوع يحبسون انفاسهم حتى لايزعجوه .

وتلطفت صاحبة السعادة بانحناءة من رأسها وهى تضغط باصابعها على منديل حريرى ازرق وكانت تتظاهر امامه بالجلد ، والاحتمال وان كان يبدو انها تريد منه ان يفهم ان ذلك مجرد تظاهر .. وكان يود الطبيب وهو فى وقفته هذه ان يفسر مظهر هذه المرأة الطائشة فى حزنها البالغ على كلب مريض . فهى لابد قادرة على ان تشهد وهى تضحك قرويا يذبح دون ان تحرك ساكنا .. فلماذا ؟ ..

لان هذا الكلب يمثل جزءا من أنانيتها وهى قد رأت كثيرات من سيدات الطبقة الراقية يعتصر الحزن قلوبهن على كلابهن المريضة .

على ان الطبيب لم يدع خواطره تجرى وراء نزوة البحث فى حقيقة هذه المرأة وجعل يترفق فى فحص - لولو - وهو يحاول أن يصرخ . ووقف صاحب السعادة يفتل شاربه صامتا . ولايجرؤ على ان يوجه نظره الى وجه صاحبة السعادة . فربما شتمته امام الطبيب .

وخيم الصمت على جميع من فى القصر . لايتحدثون ولا يحركون أصابعهم ولا ينقل الواحد منهم قدما الا اذا اطمأن الى انها لن تحدث صوتا . حتى نوبات السعال التى كانت تراود بعض الخدم على التردد خنقوها فى عنف مكتوم ، فما ينبغى ان يمزق ستر هذا السكون سعال قد يؤذى العزيز « لولو » فى رقدته .

وفى وسط هذا الصمت الرهيب والهدوء المقبض ، اقترف مخلوق أحمق جريمة كادت تودى بحياته . فانه اجترأ أن يهمس فى أذن صاحب السعادة قائلا :

ـ عوضين عبد المتجلى يبكى خارج القصر .

وكان صاحب السعادة فى هذه اللحظة منحنيا على الجسد الطاهر للعزيز «لولو» يحاول وهو الجاهل بالطب أن يعرف ما ألم به وممم يشكو وما علاجه ؟

وصرخ صاحب السعادة فى وجه المخلوق التعس صرخة كادت تحرق وجهه قائلا :

وقال الرجل وهو يجاهد أن يجمع الحروف التى تتألف منها الكلمات :

ـ ع . عـ .. وضين عبد المتجلى يبكى

وصفعه صاحب السعادة فوقع على الارض . ثم نهض وهو يدارى وجهه بذراعيه .

ولم يسقط على الارض من شدة الصفعة بل من هول الخوف .. وصفعه مرة اخرى ومرات ونادى احد الخدم لياخذه الى الغرفة المظلمة فيسجن فيها ثلاثة ايام بغير طعام ولا شراب .

وارتاحت صاحبة السعادة حينما عرفت ماعوقب به هذا الاحمق . بعد ان أفسد بغبائه ووقاحته المشهد المسرحى الحزين ولولا ان دورها فى هذه المسرحية يقتضيها التظاهر بالحزن لضحكت وهى ترى انسانا تسلب حريته لمجرد انه نطق باسم عوضين .

ترى ماهى قصة عوضين .. ؟

انه مجرد قروى يملك جاموسة وساعدين قويتين وغلاما فى الحادية عشرة من عمره وكان الغلام اذا غادر المدرسة الاولية

يذهب الى الحقل فيعاون اياه ويقتطف ثمار البلح ويسبح فى المصرف ويقود الجاموسة من حقل البرسيم الى الدار .

وذات يوم خرج ممدوح اصغر أنجال صاحب السعادة وفى يده مسدس التقطه من حجرة والده وراح يجرب انطلاقه فصوبه الى غصن شجرة عليها طائر فانطلقت الرصاصة واصابت الغصن ولكن الطائر مضى يسبح فى الفضاء وكأنه لايصدق أنه نجا .

وضحك الغلام ممدوح طويلا وامتلا قلبه بهجة اذ ان وجود المسدس فى يده قد منحه قوة تضاعف من قوة صباه وتضاعف كذلك من اعتزازه بانه نجل صاحب السعادة وصوب المسدس الى حائط قريب ثم أطلقه فاستقرت الرصاصة فى جانب منه وراح يفكر بعقله الصبيانى ..

– ايستطيع هذا المسدس ان يقتل انسانا ؟

وفى هذه اللحظة كان يسير فى الطريق محمود نجل عوضين عبد المتجلى . فاطلق ممدوح عليه النار وارتمى محمود على الارض وصرخ مرة واحدة ثم صعدت روحه الى السماء تسابق الطائر الذى كاد يفتك به ممدوح .

وعرفت القرية كلها ان ممدوح نجل صاحب السعادة قتل نجل عوضين عبد المتجلى وسرى النبأ فى القرية المجاورة . والحق ان كثيرا اظهروا موفور سخطهم لوقوع هذا الحادث . اما اهل قرية الشيخ سند فقد استقبلوا الحادث الاليم كما يستقبلون شدة الحرارة فى الصيف وشدة البرودة فى الشتاء .

وجاء عوضين عبد المتجلى يبكى ويمزق وجهه باظافره وهو لايستطيع ان يقول شيئا . لقد كان حزنه بمثابة يد من الحديد المحمى تضغط على قلبه وخيل الى الناس ان الرجل قد جن .

وكان لابد ان يبلغ عمدة القرية البوليس نبأ الحادث وكان بلاغا عجيبا حقا هذا نصه :

« بينما كان المدعو محمود عوضين عبد المتجلى يسير فى الحقل اذ برصاصة تنطلق وترديه قتيلا ولم يعرف الفاعل وبسؤال والد المجنى عليه لم يتهـــم احدا »

وجاء مأمور المركز وضابطان ووكيل النيابة والطبيب فاستقبلهم عمدة القرية مرحبا وابتسامة الغبطة ترقص على شفتيه وهمس المأمور فى أذنه :

ــ والحقيقة ياحضرة العمـــدة ..

وتقلصت عضلات وجهه وانتابه الفزع وهو يقول :

ــ الحقيقـــة .. الحقيقة .. ياسعادة البك ماذكرته فى البـــلاغ ..

واشتد الهمس بين الحاضرين ثم قال له المأمـــور :

ــ ألا تعـــرف انت القاتل ؟

ــ أنا ! ..

واهتاج العمدة وجعل يتلوى بين يدى المأمور كمـــا لو أن الطلق النارى أصابه فى بطنه وأقسم بالطلاق ثلاثا أنه لايعرف القاتل وكان المامور يعرف انه يكذب . وكان العمدة يعرف ان المامـور يعرف انه يكذب ولكن زوجتيه لو طلقتا فلن يفقد راسه اما اذا كان يعرف القاتل .. اما اذا قال من هو القاتل فان مأمور المـــركز والضابطين ووكيل النيابة سيحضرون الى القرية فى المساء ليتولوا التحقيق فى مصرع عمدة القرية والقاتل المجهول .

واستاذن المحققون فى أن يحظوا بلقاء صاحب السعادة وقـــد تعطف حفظه الله فسمح لهم باللقاء وعندما جرى الحديث حـــول مصرع هذا الغلام ابدى صاحب السعادة دهشته .. فهو لايعرف شيئا عنه على الاطلاق . وهمس ضابط البوليس فى اذن وكيـــل النيابة حين رأى غلاما يعدو فى فناء القصر .

ـ هذا هو ممدوح القـــاتل ..

وسـأل صاحب السـعادة مامور المركز

ـ هل عثـــرتم على القـــاتل ؟

وقال المامور وهو يغالب ضحـكة مكتـومة .

ـ لم نعثر عليه .. والبركة فى حضـرة العمـدة .

وضحك صاحب السـعادة قبل ان يلقى هذه النكتـة !

ـ اذن فلن تعثـــروا عليــه ابدا !

والتفت المامور الى العمدة يسأل :

ـ وبهذه المناسبة أين والد القتيـــل ؟

وقال العمــــدة دون أن يتلعثـــم :

لعله ســافر الى مكان لانعرفه .. فانت تعرف ياسعادة البك ان هـؤلاء الفقـراء يسلمون امرهم فى المصائب لله .

وفى هذا اليوم افرج عن والد القتيل من محبسه فجأة الى القصر يطالب بولده ويبكى..وكان القصر فى حالة حزن كما وصفنا بسبب مرض العزيز « لولو » غير ان عوضين عبــــد المتجلى لم يستطع ان يقتنع بان لولو افضل عند صاحب السعادة مليـــون مرة من ولــــده القتيـــل .

ونادى صــاحب الســعادة ابراهيم افنـدى كاتب الدائرة وســـــأله :

ـ ألم تعطوا هذا الرجل عشرة جنيهات ؟ ..

وقال ابراهيم افندى وهو يرتعش

دفعناها .. دفعناها له ورفضها ياســعادة الباشا

وغضب صاحب الســعادة كما لو أن احدا لطمه على وجهــه ثم قـــال :

ـ ماذا يريد اذن ؟.. اعطوه خمسة عشر جنيهات .. وقدم في مظروف نظيف ثلاثين جنيها للطبيب .

وجيء بالمدعو عوضين وقد جفت دموعه في عينيه ولكنه مازال يبكي .. كان قلبه هو الذي يدمع ..

وقال له ابراهيم افندى وهو يتظاهر بالشفقة عليه والرثاء له :

ـ اسمع ياعم عوضين .. كلنا محزونون من اجلك ولكن قضاء الله وقدره ..

ثم ادنى يده من كتفه وهو يقول :

ـ اين ايمانك بالله يارجل ؟

وصرخ الرجل .

ـ هل الله يرضى عن هذا ؟ ولدى يقتل ولا يقدم القاتل الى القضاء ؟

كانت المصيبة قد هدته ولكنها امدته بقوة مروعة . حتى انه استطاع وهو القروى التافه الشأن ان يقف من صاحب السعادة هذا الموقف العدائى السافر . وكان قد استحال خوفه وذله وضعفه الى ياس بالغ فهو لايريد شيئا من حياته الا ان يعيدوه الى الحياة .

وصرخ مرة اخرى ..

ـ أريد ولدى ..

أما ابراهيم افندى فقد صمت .. فما يطيق أن يدخل في جدال حول هذه المسالة المحزنة .

انه يستطيع أن يظهر العطف والحنو ولكنه لا يستطيع أن يناقش في موضوع تقديم نجل سيده الى القضـــاء .

وقال ابراهيم افندى :

– اسمع ياعم عوضين .. سعادة الباشا كان يود ان يـراك بنفسه لولا انه مشغول كما ترى مع الطبيب الذى يفحص كـلب الهانم .. وقد أمر لك بخمسة عشر جنيها .. هذه هى .

وصـــاح الرجـــل :

– آخـــذ ثمـــن ولدى ؟

وامسك بالنقود وجعل يطويها وهم بان يدخلها فى جيبـــه .. ولكنه انتفض كما لو أن حية لدغته وراح يمزق الاوراق وينثر مزقها فى الهواء ودهش ابراهيم افندى ولكنه لم يستطيع ان يصنع شـــيئا واخيرا قدم ورقة الى عوضين وقال له :

– امض هنا على آنك تسلمت من سعادة الباشا خمســـة عشر جنيهـــات .

وفى هذه اللحظة اعلن الطبيب ان الخطر قد زال عن العزيز « لولو » فسرت موجات الفرح فى نفوس جميع من فى القصر ولولا الوقار الواجب لصاحب السعادة لتدفقت من أفواه الخـــادمات ســـيول الزغاريد ..

اللص الكبير

ولد على بهجت باشا فى بيت ثراء وسلطان . وكان والده من اللصوص ولكن القانون كان يقف على بابه ذليلا مهينا فلا يستطيع ان يمد اليه يده الا ليحييه .. وكان أهل الاقليم كله يكرهونه ويخشون بأسه فهذا الرجل الدميم يحمل فى وجهه عينا لاتوأم لها كانت ثروته من اللغة ضئيلة تافهة وكان يؤثر أن يخاطب غيره من الناس بلغة الرصاص وكان اشد اللصوص عتوا يخضعون لسلطانه وهو الذى يحكم فى كل ما يشجر بينهم ما خلاف . وأى لص سرق من ارملة مسكينة الشاة الوحيدة التى تملكها . عليه ان يدفع ثمنها الى زعيم اللصوص هذا .. أو توجد فى اليوم التالى رصاصة استقرت فى قلبه ..

واشترى عثمان دسوقى زعيم اللصوص الف فدان أكثرها مما وضع يده عليه من اطيان الدولة ومن اطيان الفقراء والمستضعفين، وفى سنوات اصبحت له ثروة طائلة جعلته من العظماء ، واسبغت عليه نعوت الذكاء والالمعية والنبوغ . وكان اذا شهد مجلسا من مجالس القرويين يعجزه جهله واحتقاره للناس عن ان ينطق بشىء ويظل صامتا فأكسبه صمته هذا ميزة من الدهاء والحنكة والبصر بما فى خبايا النفوس .

وكان الذين يطيب لهم أن يمدحوه يقولون عنه :

ـ ما اشد دهاءه وحذقه . يعقد فى المجلس فلا يفتح فمه ويصغى الى احاديث الناس وهو صامت ..

واذا كان للتاريخ ان يعنى بامثال هذا الرجل الامى ،فسيقول عنه انه حين بلغ الخامسة والستين ترك مهنة اللصوصية ،ولكنه ظل على اتم الصلات باخوانه اللصوص وكان يلذ له ان يعرف نبأ كل حادث سرقة يقع فى المنطقة وعندما صعدوا به الى رتبـــة الباشوية بعـد ان دفع ثمنها الباهظ لم يعد يهتم السرقات .. ولا اللصوص .

ورزق بولده على بهجت هذا فسماه باسم مهندس الرى ولما عرف القراءة والكتابة ذهبوا به الى المدرسة ولكنه لفرط ذكائـه كان يرسب فى كل عام وظل يرسب سبع سنوات متوالية فاخرجه والده من المدرسة وقال لمن كان بجواره :

ـ ما فائدة ولدى بهجت من التعليم ؟ هل يسعى الى وظيفة وعنده هذه الثروة ؟ أولئك المدرسون الاشقياء يسقطـونه فى الامتحان عامدين لانهم من ـ الشيعة ـ

وكانت كلمة الشيوعية فى ذاك الوقت جديدة فخلط سعادة اللص الاكبر بينها وبين الشيعة ووافق الحاضرون على ما قـاله سـعادة الباشـا .

وهكذا نشأ على بهجت فى هـذا الجو الطاهر وفى كنف والد لايتورع من أن يقتل عشرة او مائة لمجرد ان ظلالهم سقطت عـلى جدران قصـره .

لما شب النجل المحروس واستوى عوده كانت له فى كل يوم فضيحة او أكثر وكان والده يضحك طويلا كلما بلغته انباء هـذه الفضائح الخليعة البشعة فاذا لقى ولده تظاهر بالغضب منه وماهى الا لحظة حتى يربت على كتفيه ثم يسأله .

ـ هل كانت مليحـة ؟

وعانى القرويون المساكين الكثير من سطوات هذا الشرير ولم يكونوا يملكون علاجا الا ان يقتلوا فتياتهم او يرحلوا عن القرية الى العواصم الكبرى ليتجنبوا شر السطو على اعراضهم الممزقة .

وتزوج على بهجت من ابنة احد الباشوات الموسرين ولم تكن تحبه ، ولكنها كانت مرغمة على ان ترضى بحياتها معه بعد ان توفيت والدتها وتزوج والدها بفتاة صغيرة حلوة كانت تريها النجوم فى ظهر كل يوم ..

وتركته يمضى الى غايته فى الاثم والفجور وسقط صرح كبريائه الشامخ فى الوحل وبدأت تتسلى بخيانات لا حصر لها اما الحراس الذين سكروا من رحيق رضابها فقد كانوا يقسمون على انهم مستعدون ان يموتوا فى سبيل رشفة من هذا الرحيق

وماتت الزوجة الطيبة فى شبابها الغض فتزوج من بعدها ست فتيات كريمة رئيس كتاب المحكمة الشرعية وابنة مدير المديرية وفتاة يونانية يدير ابوها قهوة فى البندر ويقرض القرويين المال بالربا الفاحش وثلاث فتيات اخريات من بيوت متوسطة الحال. ومات منهن ثلاث وطلق الثلاث الاخريات .

وكان قد بلغ الستين واشترى رتبة الباشوية كما اشتراها أبوه ولما اراد ان يجرب الزواج من فتيات القاهرة وقع على نعمات زوجته هذه التى لايساوى سعادته فى قلبها مثقال شعرة من كلبها المحبوب «لولو» .

كانت نعمات ابنة رجل يتاجر فى الاوانى الخزفية والزجاجية وما اليها وأحب ان يرتفع عن مستواه فارسل ابنته الى مدرسة فرنسية وكانت جميلة ممتعة وفى صوتها القوى رنين عذب .. وفى ابتسامتها المشرقة ما يدير الرأس ويغرى بالاغماء .

وقد احبها موظف ميسور الحال فى وزارة التجارة وكان

يستنشق عبير سعادته من التراب الذى تحت قـــدميها .. وفى سبيل ان يكفل لها الظهور فى المجتمعات الراقية لتدمى قـلوب الرجل بنظراتها المفـرية وتصمى قلوب السـيدات بسهام الغيرة منها وترطن كلمات فرنسية عن الجو والازياء .. باع خمسة عشر فدانا فى بلدته فارسكور . ثم لجأأخيرا الى التزوير فى أوراق رسمية ولما اخذوه الى السجن ليكفر عن جريمته . لم يطق قلبها ان يفكر فى هذا المخلوق التعس فطلقته لتتروج من عشيقها ممدوح .

وكان ممدوح هذا وارث آمجاد العشرات من آجداد المماليك الذين دأسوا باقدامهم على انوف الملايين من المصريين وهو يحيـا على حبوس الاوقاف الكثيرة التى آغتصبها اجداده العظماء ، وانه لمثال حى للشباب الارستقراطى الموهوب فهو يجيد الرقص ويحذق جميع صنوف القمار ويستطيع ان يقود سيارة بيد واحدة عـلى حين تعبث يده الاخرى فى كتف مرافقته فى نزهته . وربماأمكن القول انه يعرف شيئا عن هيئة الامم وشيئا عن مجلس الامن . ولكنه لن ينزل بثقافته الى حد الالمام بالاحداث التى تجرى فى مصـــــــر ..

وعاش الزوجان ثمانية شهور .. رقصا فيها اربعين ومائتى مرة. واستمتعا بكل مايمكن ان يستمتع به ابناء آلطبقة الراقية . الـى ان كشفت مرآة الزوجة السحرية عن وجه ـ عادل ـ فظـلت عشيقته شهرين ثم تزوجته وكان عادل على وشك ان يبددالصبابة الاخيرة من ثروته التى ورثها عن السيدة الفضلى وآلدته وكانت صديقة لاكبر تاجر طوب فى مصر .واكتنزت من ثمن قبلاته ثمانين الف جنيه . ثم ماتت بضربة شمس عندما وقفت على جبل عرفات لتغسل جثتها مما يمكن أن يكون قد علق بها من الذنوب .

وليس فى طوقنا ـ وربما لم يكن فى طوق مصلحة الاحصاء ـ حصر عدد الازواج الذين دخلوآ فى حيات نعمات هانم . ولـــكن الذى نجزم به ان كل واحد منهم كان عشيقا ثم تزوج منها حتى

مرت بهذه المرحلة الدقيقة الشائكة التى تصبح فيها غير مرغوبة من احد ليتزوج منهااذ يعود وجههامألوفا جداً وعاداتهاوخصائصها معروفة واضحة . ويصبح ذلك السر الذى يجرى الناس وراءه ليكشفوا عنه مفضوحا مبتذلا . اللهم الا أن يكون الراغب فىزواجها ثريا من اثرياء الاقليم . صفعت وجهه اوراق الخريف وبرزت فى شيخوخته أخطاء ماضية واصبح قادرا على أن يحصى – وهو يسعل – سبعة امراض عنيفة تكافح من اجل بقائها فى بدنه وهكذا زفتنعمات هانم الى صاحب السعادة على بهجت باشا من غير حب ولا مودة . وان كان قد أستعيض عنهما بحفنة من الارقام ..

الصداق الفا جنيه ومؤخره الفان وعشرة الاف جنيه تودع باسمها فى المصرف .. ومائة فدان اليها وثيقة امتلاكها قبل الزفاف وهذه الحلية الثمينة بسبعمائة جنيها والثياب التىتحاك فى باريس ..

ولم لايبذل صاحب السعادة لهذه المرأة المدعوة نعمات من ماله الكثير وهى اصغر منه سنا واجمل منظرا والمجلات الاسبوعية الراقية تتحدث عن حفلاتها وتتعقب خطواتها وتاخذ رايها فى سياسة امريكا فى الشرق الاوسط وفى دخول المرأة البرلمان وفىعشرة عظماء لهذا العام ..

ومن أين يجىء المال فى يد صاحب السعادة ؟ هبه من العرق والدمع والدم فى اجساد اولئك القرويين الذين لايحتفلون بالعيد الاكبر لقد سيته . بل لانهم لايذوقون اللحم طوال العام الا حين يجىء . ولكن من هم هؤلاء القرويين ؟ اليسوا عبيد صحبالسعدة؟ اليس يكفى أن يصرخ سعادته صرختين تهزان أرجاء منطقته فتنهال على خزانته اكداس من الذهب ويحمد القرويون الله على أن السياط لم تكتب على ظهورهم نص قانون العبودية والاذلال .

كانت تبغض زوجها ولا تطيق ان ترى وجهه الا ان تكون في حاجة الى مال يدفعه اليها وهو صاغر وارتفعت بها السن الى مطلع الكهولة فاضطرت الى اصطناع الوقار والاتزان ولم تعد خياناتها تزيد على مرتين في اليوم . وكان صاحب السعادة يعيش في جحيم الغيرة ويكرع من حميمها القاتل فان عقله يؤكد له أن زوجته ليست كامرأة قيصر فوق مستوى الشبهات بل انه كان يلتقط الشبهات في طريقة الى مخدعه . فيصرخ الوحش الجاثم في اعماقه . ولكنه امام نظراتها الباردة الصارمة يرتمي على الفراش ولا يقول شيئا .

وكانت تحس وهي في القرية شواظ العداوة والبغض من أولئك القرويين ولكنها كانت تعرف أنهم ضعاف أمام زوجها الطاغية وكانت تقول لنفسها :

— كم يبلغ تعداد هذه القرية ؟ خمسة الاف نسمة .. وماذا عسى أن تستطيع خمسة الاف نملة امام عملاق ؟ انه قادر على ان يسحق هذه النمال بقدمه في لحظة .. فلتنشق مرائرهم من الكمد ولتحرق قلوبهم من الحقد .. ولن يتسنى لهم ان يحركوا مسمارا في حذاء صاحب السعادة وليبكوا على اعراضهم المسلوبة واقواتهم المغتصبة فانهم خلقوا ليرووا الارض بدموعهم ودمائهم .

على انها مع ذلك كانت تحس في حنايا قلبها رعبا خفيا من هذه النمال وسرعان ما تتبدد مخاوفها حين تصغى الى ضحكات زوجها تدوى في أرجاء القصر .

وفي كل يوم يلد الظلم في قرية الشيخ سند .. عشرات الابناء الذين جاءوا من سفاح .. ظلم وضيع بشع لايرحم طفلا ولاامرأة ولا شيخا فانيا .. وماهي الا ايام حتى انفجرت قنبلة في هذه القرية الذليلة الوادعة .. وسمع دوى انفجارها القرويون جميعا

وسمعه صاحب السعادة نفسه . وتمثلت هذه القنبلة فى مدرس الزامى اسمه عبد العظيم الشلقامى .. جاء منقولا من احـــدى المدارس البعيدة وبدأ عمله لا فى تعليم الاطفال حروف الهجـــاء بل فى التحدث الى القرويين عما يشغلهم ويفسد عليهم حيـــاتهم . ولم يكونوا يطيقون أن يكشفوا له ما فى أنفسهم من غل وما يملأ صدورهم من غضب .

لقد بلغ بهم الخوف من شناعة العقاب الى حد انهم لم يكونوا يتشاكون فيما بينهم . فلما جاء هذا المدرس الوقح جعلهـــــم يضاعفون من حرصهم على اسرارهم . اذ خيـــل اليهم انـــه جاسوس . .

فمن هو عبد العظيم الشلقامى هـــذا .. ومن اين جاء ؟

الغريب

ظل الاستاذ عبد العظيم الشلقامى يواصل شتائمه ولعناته على قرية الشيخ «سند» التى نقل اليها مدرسا فى مدرستها الالزامية وتوقع أن يجد أهلها كما تخيلهم فى ذهنه . انهم مزيج من الغباوة والخبث وتفاهة الغرض فى الحياة ولن يكونوا ابدا مواطنين صالحين فان مما يثقل عليهم أن يغيروا ما بنفوسهم من حقد وجشع ومهما يكن من أمر فانهم ينسلون ويعيشون فى هذه الارض التى يفتشون فى جوفها دائما عن لقمة العيش وعن القبور التى تضم رفاتهم حين تفقد أجسامهم القدرة على الحياة وكان ذلك فى المساء من هاتيك الامسيات الجميلة التى تمتاز بها قرى الريف فى مصر . والتى لا يستمتع بسحرها سوى الطيور والكلاب والاشجار . أما القرويون فانهم يكونون قد أخلدوا الى الراحة والى المشاجرات المنزلية المألوفة وعندئذ يمتد السكون الى أبعد مما تتصور ويسخو الهدوء وتترقرق النسائم المثقلة بأريج الحقول ويأخذ كل شيء فى اهتبال فرصة النوم حتى الحراس الذين تجود عليهم الدولة بمائة وخمسين قرشا فى الشهر .

كان الاستاذ عبد العظيم قد انتهى من اعداد متاعه فى الحجرة الفسيحة التى اختيرت لسكناه . بقدر ما اتسع له جهده ووقته . وكان متاعه سريرا صغيرا من الحديد وصوانا للملابس ومائدة ذات ثلاثة أرجل . وآنية للطعام والقهوة ومكتبة فيها حوالى مائتى كتاب حزمت بالخيوط الغليظة فلما أفرغ ذخيرته من الشتائم واللعنات على هذه القرية البغيضة أحس راحة النفس وراح يعالج ان يثير

فى نفسه ذكريات ليلة أمس عندما كان ضيفا على أسرته . وتبدت له قريبته «سناء» الفتاة الحلوة كأنها وردة الصباح .

وهتف من أعماق قلبه .. ما أجملها .. وجعل يكرر فى نفسه هذه الكلمة . ثم حاول أن يجد فى مكنون ثقافته وصفا لجمالها فلم تسعفه قريحته .. وترنم بأبيات من الشعر ثم لعن ناظمها فى سره .

ورأى على الارض قصاصة ممزقة من صحيفة فالتقطها وجعل يقرأ فيها . «أكثر عباقرة الدنيا ولدوا مع الظلم والطغيان» .

وكانت هذه حكمة لفيلسوف من هاتيك الحكم التى تكمل بها الصحائف ويمر بها القراء فيطالعونها وهم يبتسمون .

وضحك الاستاذ عبد العظيم ملء فمه . اذ كانت به حاجة الى التسرية عن النفس وراح يقول :

— وماذا لو أصبح أهل الارض جميعا عباقرة ؟ هل يغنى ذلك من الحق شيئا ؟ وهو أن هذه الدنيا من التفاهة والضعة بحيث لا يليق بالرجل الحكيم أن يتخذها رباطا لحذائه ؟

وأحس رغبة طاغية فى أن يواصل خواطره عن العبقرية . وكان بعدها مشكلة .. فان التفوق الانسانى يشقى ، وحين تسمو على كثير من الناس فانهم خليقون أن يبغضوك ، وقد تسعى الى خيرهم وتبذل من دمك فى سبيل اسعادهم . ولكنهم يجمعون دائما على اخراجك من هذه الدنيا لانك ترى ما لا يرون وتحس ما لا يحسون .

وسأل عبد العظيم نفسه :

— من هو العبقرى ؟ نصف انسان ونصف مجنون وأعجب أن نكون مدينين لانصاف المجانين هؤلاء بازدهار المدنية وبالتقدم الانسانى .

كانت له نظرات فيلسوف والهام موهوب . وكان هو نفسه

عبقريا . وقد قرىء كثيرا وتذوق أشهى ثمرات العقول الناضجة . ولكنه كان مجبرا على أن يشتغل معلما الزاميا ليكسب قوته ولم يكن يشكو من حياته هذه . أو يبصق عليها . فهو قد عرف أن صاحب القلم الذى يصحح كراسات التلاميذ وصاحب القلم الذى يمضى به على ورقة صغيرة تحوى مئات الالوف من الجنيهات . يستويان فى حاجتهما الى لقمة الخبز وجرعة الماء وليس من فرق يذكر بين أن تكون لقمة الخبز جافة أو مغطاة بطبقة من الزبد وبين أن تكون جرعة من ماء قراح أو من ماء أفيان .

وهو يدرك تمام الادراك أنه جاء الى هذه الدنيا ليحيا الفترة المحدودة بين يومين ، يوم ميلاده ويوم وفاته . وليس عليه الا أن يحاول أن يكون نافعا لنفسه ولغيره . وهل يوجد ما هو أوفر نفعا من مهنة المعلم الالزامى . حيث يحاول أن ينقش على الحجر الذى هو أذهان أطفال القرية مبادىء المعرفة ؟

كان راضيا عن حياته هذه .. أو قل أن نفسه الزاهدة فى بهرج الحياة كانت تقعد به عن محاولة الكسب بمواهبه . ولو أنه أراد أن يكون فى طليعة الكتاب البارزين لرحبت به الصحف ومنحته لقب « الكاتب الألمعى المعروف » ..

غير أنه كان يؤثر أن ينطوى على نفسه . ويرضى أن يعيش وسط هذه المتاعب لا يرسل من شدة وقدتها الزفرات الا حين ينفرد بذاته . فاذا شهدته ابان مأساته وجدته يحمل لواء الصبر بيده اليمنى ويحتفظ بقلبه فى حافظة نقوده .

وجاء اخوانه بعد قليل .. ناظر المدرسة ومدرسوها يسلمون عليه ويرحبون بقدومه وكانوا خليطا عجيبا من أزياء متنافرة . فيهم الشيخ الذى استكمل أناقته بالجبة الخضراء والقفطان الحريرى الازرق والحزام الحريرى الوردى الذى برزت عقدة طرفيه على الجانب الايسر . ولابس الجلباب والعمامة . والذى ارتدى سترة

فوق سراويل منامته . فخف الاستاذ عبد العظيم لاستقبالهم . وبه رغبة ملحة الى استطلاع ماعسى أن تكون عليه حالهم . وان كان قد تخيل ذلك ورسم فى ذهنه لهم صورا مضحكة .

ولما فتح الباب .. شغلته مباغتة رؤيتهم عن اظهار دهشته وذهلوا قليلا حين رأوه . وكانوا مثله قد رسموا له صـــورة فى أذهانهم فلما طالعهم بقامته المديدة وضخامة بدنه حسبوه انسانا غير ذاك الذى تخيلوه .

وكاد واحد منهم يعرب عن خاطره هذا . ولكنه لم يجد المجال اللائق فسكت . وأفسح ناظر المدرسة الطريق لنفسه حتى يسبقهم فى الدخول . ثم وقع الذى يقع عادة فى قرى مصر . حين يظـــل الوافدون وقوفا على الباب وكل منهم يهتف بزميله أن يتقدمه . تفضل !. بالله اتفضل أنت ؟ هذا غير ممكن !.. قلت لك تفضل؟ والذى يحدث فى هذه الحال أن يتفضل واحد من آخر الصف ليظهر لزملائه أنه ليس ممن يتقيدون بهذه المظاهر وجلسوا على المقـــاعد وعلى السرير . وبهم غير قليل من التهيب . وجعل كل منهم يصلح من ثيابه كأنهم مدعوون لتلتقط لهم صورة . وانفـــرد كل منهم بخواطره يفعل بها ما يشاء .. وكان المصباح الصغير يريق ضوءه هذه الحجرة التى تطل على كوخ متهدم . وكانت ثمة فراشـــة بيضاء تحوم حول المصـــباح لتعب من نوره حتى ترتوى وهى لن ترتوى . وجعل الزائرون يتطلعون الى هذا الضيف الوافد عليهم خلسة عسى أن يكتشفوا عيبا فيه .. أما عبد العظيم فقد أحس هذه النظرات وفطن الى اسبابها ولكنه ازدراها . ولف ساقا على ســـاق .

وأخرج من جيبه علبة فيها دخان جعل يلف منه سيجارته .. وكادوا يسألونه فى هذا أتراه يلف سجايره بيده ؟ وانهم ليجدون فى ذلك نزولا عن المستوى اللائق .. ولكنهم مع ذلك لم يسألوه ... ولعلهم لم يريدوا أن يوجهوا اليه هذه الاهانة . ولكنه كاشفهم بما

يدور في نفوسهم . فذكر لهم أنه تعود أن يلف سيجارته بيده منذ كان طالبا في مدرسة المعلمين . لا يملك أن يشترى سجاير مصنوعة فلما اصبح قادرا على أن يشتريها .. كانت العادة قد أسرته .. وصيرته عبدا لها . فهو لا يستطيع أن يستمتع بغير هذه السيجارة التى يبل طرفها بريقه حتى تتماسك .

وشعروا جميعا بأنه ضبطهم متلبسين بجريمة الزراية به فضحكوا . عسى أن يذهب الضحك بما يمكن أن يكونوا قد اقترفوه وأصغت الكائنات كلها الى هذا الليل الذى غمرها بستره . وكان نباح الكلب يمثل غطيط هذه القرية النائمة . على أن أولئك الجالسين لم يلتفتوا الى الليل وسحره والى السكون وروعته .. ولكنهم كانوا يمرون بهذه المفاتن كلها كما يمر الارنب بسر صنع .. الرادار .

وكان ناظر المدرسة قد اضطجع فى مقعده وأراح بدنه كله وأخرج من جيبه منديلا أبيض نظيفا فمسح به عينيه ثم أخرج منديلا أزرق . فأودعه كل ما حوى أنفه من محصول ثم أخرج منديلا أخضر ومسح به حذاءه . ولما أتم هذه المهام الشاقة وعرض مناديله أمام الانظار رأى ان الواجب عليه أن يتحدث فرفع رأسه وأعد على شفتيه مشهد ابتسامة . ثم قال موجها الحديث الى الاستاذ عبد العظيم :

— نرجو ان تطيب لك الاقامة بيننا وأن تجد من اخوانك ما يحبب اليك أن تهنأ بزمالتهم وصحبتهم . فنحن يا أستاذ عبد العظيم قد سمعنا عنك من قبل أن نراك ونعرف الكثير من شئونك .

وأظهر عبد العظيم دهشته الحقيقية من هذا الذى قاله .. فما وسعه الا أن يسأل :

— سمعتم عنى أنا ؟

فقال الناظر وهو سعيد بما يقول :

ـ نعم .. سمعنا عنك الكثير .. هل تعرف الاستاذ محمود سليمان السيد ؟ لقد كان مدرسا معك وحدثنا عنك كثيرا .. أى والله .. حدثنا عنك يوم ثرت فى وجه مفتش التعليم ورميته بالجهل والغباوة .. اى مدرس يستطيع ان يقدم على هذا ؟ هؤلاء المفتشون المتعجرفون يحسبون المدرس وكأنه ..

وقطع عليه عبد العظيم سيل اندفاعه .. فقال ..

ـ هذه مسألة لا أفخر بها .. انها مجرد نزوة طائشة .. فما يليق أن يسىء مرءوس الى رئيسه بمثل هذا ولكن لماذا لم يحدثكم عن ذلك القروى الذى صفعنى ؟

ولو ان أحدكم سقط من فوق كرسيه أو برز من بينهم رأس ثعبان ضخم لما زاد فيما أحسوا من دهشة وذهول بدليل أنهم صاحوا جميعا :

ـ صفعك ؟ .. تقول أنه صفعك ؟

وقال عبد العظيم :

ـ نعم .. انه صفعنى .. لقد وجدت وليده مريضا فنصحته بأن يعتنى بغذائه حتى يشتد وبذلك يتسنى له أن يقاوم المرض. ولكنه اعتقد اننى أعيره بفقره فثار وأقدم على أن يصفعنى .

وأحس ناظر المدرسة أنه أمام فضيحة لم يسمع بها من قبل . وصاحبها يعترف بها .. يا للنذالة .. وجعل يفرس أصابعه فى حزامه الحريرى الاحمر ويسوى أطراف عمامته ويخرج مناديله من جيبه ثم يعيدها .. وشد ما راعه أنه غير قادر على أن يعرب عما يجول فى خاطره لو أنه تجسم ؟

حقيقة ان حضرة ناظر المدرسة قد صفع من قبل مرارا.. فى

مناسبات كثيرة لا يستطيع أن يتذكرها .. ولكنه كان من الشجاعة بحيث لا يمكنه ان يعترف بأنه صفع على وجهه أو على قفاه، وكائنة ما كانت ذاكرته من حيث القدرة على الاحتفاظ بكل ما يمر بهـــا فانه يؤمن بأن ليس من المروءة أن يتحدث المرء عن هذه الحماقات التى اقترفها ضده الآخرون .

وقال مدرس شاب هو الاستاذ عبد العزيز دسوقى حسنين :

ــ دعنى يا أستاذ عبد العظيم أهنئك على هذه الصراحة ... انى أحب الصراحة فى القول ولا أطيق هذا النفاق الذى أصبح فى هذه الايام شعارا للكثيرين .

ورأى الناظر من واجبه أن يقول شيئا .. أن يظهر سلطانه على هذا المجلس الصغير .. وقد خيل اليه أن المدرس الشاب ربما عناه بقوله هذا .. وربما حسبه منافقا فقال :

ــ أعتقد أن الصراحة واجبة ولكننا نعيش فى عصر يقدس الناس فيه النفاق ويحترمون المنافقين .

وسكت قليلا ثم راح يقول :

ــ أما أنا فأحب الصراحة .. لا أعيش الا بالصراحة .. وهذه كلمة سـعد زغلول قد حفظتهـا والحمد لله ، أحب الصراحة فى القول .

ومع ذلك .. وعلى الرغم من أنه أشاد بالصراحة واستنجد بسعد زغلول .. فقد أحس الاسى والاسف يعصفان بكيانه .. فقد كان يريد شيئا يبهر سامعيه .. كان يود أن يظل مسيطرا على عقول مرءوسيه . ولكنه استعاد كلمته التى قالها فى سره لم تعجبه وأيقن أن سامعيه لن يفتتنوا بها .. وكان لا يطيق أن يفكر فى حرمانه من سلطانه .. وهذا المدرس الملعون الذى نقلوه حديثا يريد أن يسلبه نفوذه ويحتل مكانته .. وهو بذلك التشدق بالصراحة يستهوى ألباب الاغرار المفتونين !.

وقال عبد العظيم :

ان النفاق فى هذا العصر هو فضيلة المجاملة ... وما من أحد يستطيع أن يقول للاعور إنه أعور فى عينه الا أن يكون حاكما مستبدا أو مجنونا .. وكلاهما واحد ؟ .

وقال الشاب الذى فتنته صراحة عبد العظيم :

ـ هذا صحيح ...

ثم اقترب بمقعده منه ، ولم ينس أن يقذف ناظر المدرسة بنظرة فيها الكثير من السخرية والعجب أن من فى المجلس سددوا نظراتهم الى ناظر المدرسة .. وكأنهم يقولون له بأسلوب مهذب .. اننا نعرف المنافق ونعرف الصريح ! .

وقال ناظر المدرسة محاولا أن يمحو ما عسى أن يكون قد علق بالاذهان من حديث النفاق والمنافقين :

ـ أو نريد أن تذهب بنا الى البندر ؟ ان ضابط النقطة من أصدقائى وحسن بك خلف الله عمدة البندر . وكذلك وكيل البريد صالح افندى . وناظر المحطة زكى افندى نعيم . ومعاون التلغراف عبد الرحيم افندى مكاوى كلهم .. كلهم أصدقائى !

كان يجد لذة فى الترنم بهذه الاسماء .. وكلما ذكر اسما منها تطلع الى وجوه الحاضرين ليرى ما يكون من أثر فى نفوسهم . وهو لا ريب يتوقع أن يسمو فى أعينهم ويزداد رفعة وجلالا . وكأنه يحرص على أن يقول لهذا المدرس المنقول حديثا : ان رجلا خطر الشأن مثله يصاحب العظماء وأصحاب المنزلة الرفيعة جدير بالتقدير وخليق بالاحترام .

وسره أن يجد فى ذلك ما يدخل فى روع زملائه إنه رجل عظيم . واندفع مع تيار زهوه وخيلائه .. ولكنه كان يتوقع أن يتشككوا فيما يقول .. هؤلاء الصغار الصعاليك ربما حاولوا أن يستهزأوا به حين يتشبث بأسماء أصدقائه العظماء .. وجعل الهم يدور فى

صدره وانتابه القلق والخوف فهو لم يقترف اثما حين يكشف للرفاق عن علو منزلته ولكنهم خليقون أن ينفصوا عليه مكانته وربما حسدوه على أنه مع ذلك راح يقنع نفسه بأن تمسحه بالرجال البارزين يوليه شرفا .. وأى شرف ! .

وانطلق يتحدث عن أصدقائه العظماء مزهوا . كما لو أن القمر يطلع من كمه .. ويختال متعاليا على سامعيه الذين تعودوا منه هذه الحماقات . فأطرق كل منهم برأسه الى الارض وسرت بينهم عدوى الثوباء وجثم على المجلس شبح مقبض من الصمت والتوتر والاستفزاز ويغير مناسبة صاح ناظر المدرسة :

— .. مثلا .. صاحب السعادة على بهجت باشا عين أعيان الاقليم .. عندما كنت فى ديوان المديرية مع محمد أفندى مصطفى الموظف هناك..هو صديقى ! فصاحب السعادة حين لمحنى قادما عليه نهض واقفا .. أى والله هكذا .. !

ونهض ناظر المدرسة من مكانه ليمثل كيف استقبله صاحب السعادة .. ومد يده الى الامام وجعل يقول :
— هكذا .. نهض واقفا ومد يده هكذا ..

وتطلع عبد العظيم الى ناظر المدرسة فأحس الضيق من مخلوق يحاول أن يلتمس العظمة الفارغة من مصافحة رجل ثرى .. وكان يعرف الكثير عن هذه النماذج البشرية التى تحاول أن تنهض متسلقة أقفية ذوى الشهرة والجاه فقال :

— من هو على بهجت باشا ؟ .. وغد اقطاعى يعتصر دماء الفقراء ليصنع منها ثروة يبددها على موائد القمار والخمر والمجون .. ولقد سمعت عن سلوكه مع القرويين ما أحزننى .. سمعت أنه يغتصب الارض والعرض والمال ويحبس الابرياء فى حجرات من قصره ، وسمعت أن هذا القيصر الطاغية لا يتورع من أن يقبل الارض بين يدى وزير ..

وسرت فى الحاضرين رعدة من الخوف والفزع .. وأحسوا كما لو أن نيرانا تدلت عليهم من سقف الحجرة تحاصرهم وتحرق رءوسهم . ومشت قلوبهم فى جوانب صدورهم تبتغى لها منفذا مما تعانى من الضيق والكرب . فانه لم يكن لهم عهد بهذه الجرأة النادرة على أقدس شخصية فى محيطهم . صحيح انهم شهدوا أناسا يطعنون فى الذات الملكية ، ومنهم من يسب الدين ولكنهم لم يروا من قبل انسانا تحرق كلماته شفتيه وتحرق سائر ما فى الارض وهو يحاول أن ينتقص من قدر صاحب السعادة ...

حتى الذين تحررت عقولهم قليلا من أفراد هذا المجلس الصغير .. انتابهم هول الفزع والذعر . وأن فيهم من خشى على عبد العظيم أكثر من خشيته على نفسه . أما ناظر المدرسة فقد غرق فى ثيابه . وكان شعوره متباينا . فانه كان يخشى على نفسه من أن يتهم بأنه أصغى الى هذه المطاعن ضد سيد المقاطعة . ومن جهة أخرى كان يحس الفرح مما عسى أن يصيب هذا المدرس المنقول من أذى كثير .

ورأى ناظر المدرسة ان من واجبه الرد على هذه المطاعن المنكرة . فتنحنح ونحى ساقه اليمنى عن ساقه اليسرى وراح يقول :

ــ ان ما تقول يا أستاذ عبد العظيم يخالف الواقع على خط مستقيم . ومسح شفتيه براحته كما لو أن هذه الكلمات التى قالها تركت عليها رواسب قذرة وواصل حديثه قائلا :

ــ ان صاحب السعادة الثرى الأمثل على بهجت باشا من أعظم عظماء هذا البلد .. ماذا تقول يا أستاذ عبد العظيم ؟ ان أفضاله على هذه المنطقة لا ينكرها أحد .. من الذى جاء بالوزراء الى هذه القرية ؟ من الذى يحيى حفلات السمر فى هذه البقعة الموحشة

ويجلب لها الراقصات من القاهرة ؟ من الذى يجيء اليه السائحون من شتى أقطار العالم لينزلوا ضيوفا عليه فى قصره ؟ من الذى خاطب رئيس الوزراء أمامنا رأسا فى التليفون ؟ من الذى وقف من أجله القطار الملكى على محطة السكة الحديد ؟ ماذا تقول يا أستاذ ؟ ان هذه الامجاد قطرة من بحر ..

وحاول عبد العظيم أن يضحك من هذه الامجاد التى يعزوها الناظر الى سيده ولكنه أدرك بسليقته الحرج الذى صار اليه كل من فى المجلس . فأراد أن يدفن هذا الوليد قبل أن يكبر وتصبح له مخالب قد تؤذى من لا يريد لهم الأذى من الابرياء . فمد يده الى كتاب يحمله أحد الجالسين اسمه « فلسفة الزمن » وقال لحامله :

— هل تقرأ هذه التوافه ؟

وجعل يتصفح الكتاب وينظر فيه ممتعضا .. ورأى ناظر المدرسة بعد أن أصاب النجاح كله فى خطبته عن صاحب السعادة أن من واجبه أن يحتج فصاح قائلا :

— ان مؤلفه رجل عظيم ؟

— هل قرأته ؟

— أنا !.. لا ولكن مؤلفه رجل عظيم .

— وهل هذا يكفى ؟ اذا وجدت هذا الكاتب العظيم يسير عاريا فى الطريق فهل تظل على اعتقادك فيه ؟

— ولكن هناك فرقا بين أن يسير عاريا وبين أن يؤلف كتابا !

— كلا .. لا يوجد فرق بين الاثنين .. فكلاهما عمل من شخص واحد وليست هناك فلسفة للزمن .. الزمن المحدود بالايام والشهور والاعوام .. والذى حددت أيامه بالساعات والدقائق والثوانى .. أى فلسفة تنطوى عليها هذه الارقام ؟

المسألة أن أدباءنا خلال الحرب الماضيـة كانوا فى جدب فكرى لانهم فقدوا ينابيع ثقافتهم من الكتب والمجلات الاجنبية فأمطرونا بهذا الادب الرخيص الذى يشـبه الخبز الاسـود ودائما توجد حقيقة مريرة الطعم هى أن أكثر ما يصدره أدباؤنا منسـوبا اليهم لا يستحق شرف القراءة واننا فى هذه النهضة التى لاحت تباشيرها فى حاجة الى كتب مترجمة أكثر من حاجتنا الى كتب موضوعة .. والا .. فما أتعس القارىء الذى يستمد ثقافته من تفكير سلامة موسى مثلا .

وقدمت للمرة الرابعة أكواب الشاى الاحمر ومضى عبد العظيم يقول :

ــ بين حين وآخر تضبط عين فاحصـة كلمة أمضاها نكرة فى احدى الصحف وهى بنصها لكاتب آخر وهذه غفلة وبلاهة من ذلك النكرة الجرىء .. ولكن من يدرينا ان الكاتب الذى سبقه لم يسرق هذه الآراء من كاتب آخر ؟

ونهض عبد العظيم من مكانه فوضع كوبه على منضدة خشبية سمراء اللون ثم عاد يقول :

ــ كلنا كما يقول اناتول فرانس ، لصـوص فى الافكار والآراء ، والفـرق هو ما بين لص غبى ولص ذكى وما من جديد فى آرائنـا وأفكارنا وانما يتجدد الاسلوب .

والى جانب الغـارات التى نكبنا بها فى هذه الحرب نكبنا بهذا الفشل الادبى الذى جعلنا نقرأ قصة المرأة التى أكلت ذراع زوجها بعنوان آخر بقلم أديب معروف .. وجعلنـا نقرأ أفكار صـبية المدارس تحمل أسماء أعاظم الكتاب البارزين .

حتى ناظر المدرسة كان يصغى وقد التمع فى عينه بريق الدهشة والاعجاب والسخط ولم يبال عبد العظيم ولكنه ظل يلقى محاضراته عن الادب والادباء :

ففى هذه المجالس الادبية القروية التى تضم اولئك المعلمين اما أن يغتابوا العمدة أو يتحدثوا فى السياسة أو يتجولوا فى حدائق الادب .

وقد تسمع من الآراء القوية الدافقة ما لا تسمعه فى أرقى نوادى القاهرة . فهؤلاء الفتيان الذين يخبون فى الكساوى الافرنجية ويفسح لهم القرويون الطريق فى حقد واحترام يقتلون أوقات فراغهم بالقراءة والاطلاع ، وعاد عبد العظيم الى تشاؤمه فقال وهو يحاول أن ينهى الجلسة :

– ما من مؤلف يثير اعجابى سوى هذه المؤلفات المدرسية التى لا يفيد الطالب منها شيئا يذكر فهى وحدها التى قصد واضعوها الى افادة أنفسهم وافادة الآخرين وانفض المجلس .

وعندما حاول ناظر المدرسة النوم استعصى عليه ذلك فحملق بعينيه فى سقف الحجرة وراح يقول :

– اللهم .. ولكنه لم يكمل دعاءه ثم استلقى على فرشه ونام .

في حدائق الأدب

انبعثت فى حياة اولئك الشبان روح من اليقظة والتطلع الى الغد .. وكلما نظروا الى حال القرية والقرويين ازدادوا رغبة فى القراءة والبحث فى جوف كل مؤلف عن علاج هذه المشكلات .. وكانت ندوتهم فى المدرسة حين ينصرف التلاميذ صارخين مبتهجين كأنهم يغادرون سجنا . فيظل الاساتذة المدرسون يثرثرون حول شئونهم الخاصة . وفجأة يجدون أنفسهم فى حديث لاينقطع عن حال اولئك التاعسين من الزراع .

وسأل شاب وكان موفور العافية ساكن النفس :

ـ ما هو السر فى شقاء هؤلاء الناس الفقر أم الجهل أم المرض ؟

واندفع ناظر المدرسة يقول :

ـ الجهل !.. أضر الكوارث على هؤلاء النـــاس هو الجهل . اسألنى انا لا يوجد فى العالم من هو اخبر منى بجهالة هـــؤلاء الاوغاد .

ومسح فمه بيده واستقر فى مقعده ، كما لو انه منح الشعوب الضعيفة حقوقها ، وكان يسعده أن يتحدث عن نفسه وأن يثنى عليها بما ليست له اهلا .. وقال عبد العظيم :

ـ ليس الجهل هو كل شىء فى حياة القرويين . قد يكون الفقر هو سبب كل هذه المصائب التى تنزل بهم ، اما العلم فانه لا يرفعهم متى كانوا فقراء بل ربما هبط بهم الى مرتبة أدنى .. وغضب ناظر المدرسة من هذه الوقاحة وغاظه أن يرى خطيته عن الجهل تمزق

على هذا النحو فجعل يهز يده ويصرخ واستبـدت به حماسته لفكرته فراح يدير عينيه فى الحاضرين عسى أن يجد منهم نصيرا .

ومضى عبد العظيم وكأنه لا يدرى شيئا عما يقوله ناظـــــر المدرسة .

— نعم .. اننا نعلم أبناء القرويين كل ما هو موجود فى برنامج الدراسة .. فاذا تعلموا كل ما هنالك عاد الكثيرون منهم الـــى الحقل كما تعود الماشية . وبعد سنوات ينسى الواحد منهم أكثــر ما تعلمه ، ثم تمضى به الايام فاذا هو قد أصبح أميا لا يقــرأ ولا يكتب .

وفتح فمه ليواصل حديثه ولكنه صمت ثم عاد يقول :

— لو أن هذا القروى الذى لقناه حروف الهجاء كان ميسور الحال لواصل الدراسة ولكنه اضطر الى ان يكتب بفأسه على وجه الارض حروف الهجاء مغلوطة ، ومضى يتزوج اثنتين وثلاث نســوة يلدن له أطفالا يعينونه حين يكبرون على أن يصل الى قوت يومه .

وقال معلم آخر :

— وكيف نحارب الفقر ؟ هذه هى المشكلة ؟

وقال عبد العظيم :

— ليست محاربة الفقر فى أن نأخذ من الاغنياء نعطى الفقراء فانهم سيبددون ما يأخذون فيما لايفيد .. ولكن الطريق الحقيقى لمحاربة الفقر أن نرتفع بمستوى الحياة الى القدر الذى يستطيع منه العامل الكادح أن يحيا حياة لائقة ..

وقال له محمود الحصير :

— وكيف كان ذلك ؟
مقتبسا هذا السؤل من كليلة ودمنة .

وقال عبد العظيم :

ـ لسنا نحن الذين أمرنا من الدولة أن نحل هذه المسألة .. فان ذلك من شأن المختصين الذين درسوا هذه المشكلات كما درسنا نحن طرائق التربية . وللدولة اذا أرادت أن ترفع مستوى الحياة فيها . جمعت هؤلاء الناس وأمرتهم أن يقولوا لها ماذا تصنع ؟ .. فهتلر حين جاء الى الحكم ألزم المختصين بأن يجودوا بآخر ذرة من ذرات التفكير وبعد شهرين كان كل ألمانى يجد طعامه وكساءه وأجرة المسرح الذى يرتاده .

وقال شاب عاد من القاهرة منذ ثلاثة أيام :

ـ خير من يصور حياة الفقراء هو الاديب الروسى العظيم مكسيم جوركى ، فقد قرأت له «مخلوقات كانت آدميين» .. ما هذه العبقرية ؟ ما هذا السحر ؟ ما هذا الاسلوب الجبار ؟

وراح يسأل فى نشوة وإعجاب ، أسئلة تسبقها أجوبتها فى خاطره ..

وقال ناظر المدرسة :

ـ أما أنا فيعجبنى ارسين لوبين .. قرأت له قصة .. اختفاء جوهرة المهراجا .

وضحك الحاضرون طويلا دون أن يدرى ناظر المدرسة سبب هذه الضحكات .

وقال طالب فى الجامعة :

ـ والعقاد فى «سارة» ألا ترونه عظيما ؟

وتحدث عبد العظيم . وكأنهم كانوا يتوقعون منه أن يفصل فى هذه القضايا التى يثيرونها .. وأنهم لموقنون بأن كلمته هى القول الفصل :

ـ أما أنا فلا يعجبنى هذا المكسيم جوركى .. رغم عبقريته الطاغية . فهذا الاديب الذى نشأ فى قاذورات البؤس وغاصت قدماه فى أوحاله الى أذنيه لا يريد وهو فى شيخوخته أن يتحرر من وقفته المربكة .. أنه يملأ أنوف قرائه بروائح ماضيه العفن ولا يريد أن يدع هذا الماضى المملوء بكل ما هو قاس شرير وبكل ما هو عنيف بل انه ليسحبه من ورائه كما يسحب السجين الهارب سلاسل قيوده وأغلاله وهو لا يرى فى هذه الحياة التى انعمت عليه فى كهولته وفى شيخوخته بانماط من الترف والرفاهية الا مجرد كهوف وأكواخ وأوحال وقاذورات وصعلوك يسرق اعين الزجاجية من وجه صعلوك مثله ، وشريد يمزق كل ما هو مقدس استجابة لاصداء معدته الخاوية .

انه ليس انسانا هذا العبقرى .. ولكنه وحش يحاول جاهدا أن يفترس فى حياة الآخرين كل ما يبعث على الطمأنينة والدعة والاستقرار ، ان كل سطر فى أية قصة من قصصه يمثل لنا حياة مخيفة بشعة قاسية وهو لم يحاول أبدا أن يسعد هذه الانسانية بابتسامة عزاء وسلوى ولكنه يحرص دائبا على أن يشيع فينا العبوس والجهامة والاكتئاب . ان أصابعه التى طالما ارتجفت تحت وطأة الشقاء البشرى لاتخط سوى الكلمات الموجعة الاليمة التى يتفجر فيها دم البشرية فلا تكاد عيناك تطالعان هذه الكلمات حتى تغرورقا بالدم الذى يسيل فى أحاديثه وعباراته .

والحياة ليست كما يتصورها مكسيم جوركى من التعاسة بحيث لا يستطيع الناس أن يحيوها فى أشد العصور ظلمة وجهالة فهؤلاء الاشقياء الذين يجيد مكسيم جوركى تصويرهم لم يفقدوا فى أشد حالات البؤس متعة الرضى بالكائن المقدور ولم يزايلهم الامل فى أن يجىء غد مشرق ومضى يقول :

ـ لقد قرأت أكثر ما نقل الى العربية من أدب مكسيم جوركى ولو كنت أعرف لغة أجنبية لقرأت له كل ما دبجته براعته ولكننى

مع هذا لا أكاد أطيقه فانه يفزعنى بهذه الشخوص التى يتسلى بتحريكها وليست فيها حياة ولكنها تبدو كالدمى السخيفة التى صنعتها يد فلاح جاهل .

وسكت قليلا ليريح لسانه من هذه الثرثرة العجيبة ثم عـــاد يقول :

ــ أنظر الى دستويفسكى الاديب الروسى العظيم أنه يحكى لنا اقاصيصه غالبا عن مرضى ولكنه لا يهوى بهم الى قاع الاوحال ولا يدع بثورهم تسيل دما وصديدا وتملأ الجو بروائحها التى تزكم الانوف ولكنه يشفق عليهم ويترفق بهم كأنه طبيب أو ممرض يعنى بهذه المخلوقات الضعيفة العاجزة .

وعرضوا بعد ذلك لطائفة من أسماء المشاهير فى الادب وخاضوا فى أحاديث شتى عنهم وعرف الحاضرون أن عبد العظيم لم يدع اديبا من هؤلاء دون أن يقرأ له قراءة المستوعب الناقد .

وجاء ذكر توفيق الحكيم فقال عبد العظيم :

ــ ان توفيق الحكيم كاتب ومفكر ولكن تفكيره أعظم من أدبه ومع أنه شديد الانطواء على نفسه عزوف عن مخالطة الناس الا أنه يستمد تفكيره من قلبه ومن عقله .

واحس الحاضرون أنهم قد تعبوا من هــذه الاحاديث التى لا تنتهى وسأل واحد منهم عبد العظيم قائلا :

ــ وأنت ؟ ما هو مكانك بين هؤلاء الادباء ؟

وضحك عبد العظيم وقد أحس لهذا السؤال نشوة ثم قال :

ــ مكانى بين المعلمين فأنا معلم ولا أكثر من ذلك .

وافترقوا ...

طريق الحمير

الطريق دائما الى البندر محفوف بالمكاره ، فهؤلاء القرويون لا يفكرون عادة فى نتائج أخطائهم وقد تمر الدواب فى هذا الطريق فلا تتعثر .. وفى اليوم التالى يستحيل عليها المرور .. لان كل من يملك قيراطين فى هذه المنطقة لا بد أن يغرق الطريق وهو يرويهما وأن أقل انتقاد يوجه اليه بسبب اهماله يفضى الى كارثة محققة . معركة تزهق فيها أرواح كثيرة من الابرياء .

وفى يوم العطلة ركب الاساتذة المدرسون الدواب الى البندر وساروا فى طريق لا يخلو من الاوحال والعثرات وكانت الحشائش النامية على حافتى الطريق تتمايل وتهتز . والحشرات والفيران تجرى الى غاياتها لا تبالى بهؤلاء المارين .

واخترقوا فى طريقهم ثلاث قرى رأوا فيها هذه البقاياالادمية التافهة تصارع الاقدار نفسها وسلاحها الذل والصبر والثرثرة . وما من احد يملك أن يصلح من شأنها .. أو على الاصح ما من أحد يريد جادا أن يصلح من شأن هؤلاء القرويين البائسين الذين يملكهم اقطاعى وغد كما يملك الارض والماشية .

واحس عبد العظيم مرارة فى حلقه وهو يزدرد هذه المشاهد الاليمة المروعة .. مشاهد البؤس الانسانى الذى يخيم على هذه الملايين من القرويين ومع أنه يرى ذلك كل يوم الا أن رؤيته طفلا رضيعا يستف التراب ويبكى فى ظل جدار متهدم جعلته يتقزز ويوشك أن يغمى عليه .

وأبدى عبد العظيم ملاحظات عابرة وكان مما قاله :

ـ ما ذنب هؤلاء القرويين المساكين حتى تصبح حياتهم أقرب الى حياة العجماوات .. ما ذنبهم ؟

وددت لو أدرى .

وقال ناظر المدرسة وهو لا يخفى سخريته :

ـ ذنبهم .. أقول لك انا ذنبهم !! انهم لا يستحقون سوى ذلك .. يظهر أنك لا تعرف القرويين .. انهم أهل غدر وخبث ونفاق .

ـ كيف لا أعرف نفسى وأبى وأخى .. اننى قروى يا حضرة الناظر . بل كيف لا أعرفك أنت وقد نشأت فى قرية صغيرة . وقد يكون القرويون كما وصفت ولكننى أسأل : لماذا هم كذلك ؟

ونخس حماره وراح يقول :

ـ انهم كذلك لانهم فقراء .. فالفقر وحده المسئول عن غباوتهم وشرورهم وانحطاطهم .. من يملك فدانين فى القرية يحاذر أن يرتكب وزرا لانه يخشى على ثروته .. أما هذا الصعلوك الذى لا يملك مكان قدميه فانه يقول دائما : السجن أحب الى .

وقال الناظر :

ـ ولكن القرية اليوم غيرها بالامس .. لقد تسلل اليهانور العلم والمعرفة .. نحن هنا يا أستاذ عبد العظيم ..

وهز رأسه مفاخرا كما لو أنه اكتشف علاج الشيخوخة .

وقال عبد العظيم :

ـ أعرف ما ترمى اليه .. المدرسة الالزامية التى تسلل منها النور الى أدمغة هؤلاء الاطفال الفقراء ولكن ما قيمة العلم والمعرفة فى معالجة الجوع ؟

ـ اننا نطعمهم يا سيدى وجبة كاملة فى الغـــداء .. والتقارير الرسمية تؤكد ان أجسام هؤلاء الاطفال قد صحت بســـبب توفير الغـــذاء لهم .. و ..

ـ آه التقارير الرسمية التى يكتبها رجال يغتسل احـــدهم سبع مرات لو أنه لمس جبين واحد من أولئك الاطفال .. التقارير الرسمية التى يدبجها رجال هم على أحسن الصلات بمتعهـــدى توريد الاغذية الى المدارس الالزامية .. ليست المسألة مسألة نور يتسلل وجبه غـــذاء كاملة ولـكنها مسألة فقر يجتاح هـــذه القرى منذ آلاف السنين .. فهل يستطيع المعلم أن يحارب الفقـــر فى القرية ؟

وأحس ناظر المدرسة الارتباك أمام هذا الاسلوب القوى المتدفق فملأ قلبه بغض هائل للرجل الذى يعرف كل شىء .. ولا يبدو عليه أنه يباهى بما يعرف .

ولجأ ناظر المدرسة الى الفكاهة .. يبدد بها الضباب الـــذى يخيم على فؤاده .. واتخذ من بأساء القرويين مادة للضحـــك والهزل .. وأثبت أنه مازح بارع .. لهذه النكات اللفظيـــة التى تضحك الفم وتميت القلب .

وانتهوا الى البندر أخيرا وربطوا دوابهم فى فناء منزل صـــديق لهم ...

وقال أحدهم :

ـ نذهب الى القهوة فنجلس عليها .. قهوة ابراهيم الصرماتى فيها نرد ودومينو وأشربة مختلفة .. أم نذهب الى قهوة الخواجة أنسطاسى ؟ وغمز بعينه ، فان أحد هؤلاء السادة يعبد الارض التى تخطر عليها زوج الخواجة أنسطاسى .. وهى امرأة وهبت ماضيها بالبطاقات لكل راغب . وقد ولى شبابها ، ولكن بقية من الســـحر

والاغراء ما تزال تجذب اليها أنظار المعجب المتيم .

وقال ناظر المدرسة :

ـ نذهب الى ضابط النقطة .. سعادة حسن بك حمدى .. صديقى نسلم عليه ونشرب القهوة . ونزور العمدة فى داره فانه يسأل عنى كل يوم .. هو صديقى .. أو تعالوا الى وكيل البريد .

وظل عبد العظيم حائرا مشدوها لا يدرى ما ينطق به فليس له شأن فى اختيار مكان الجلوس حتى يمموا شطر قهوة الخواجة انسطاسى وهى تقوم على مصرف صغير . وقد انتثرت مقاعدها السمراء المحطمة فى حديقة مهملة .. أو على الاصح فى مكان كان يوما حديقة .

وجلسوا حول منضدة خشبية عليها غطاء قديم باهت وجعلوا يضحكون بغير فكاهة لعلهم يريدون أن يلفتوا اليهم الانظار أو يبددوا جو التهيب والخجل .

وجاء الخواجة نسطاسى وهو رجل مفراح يملك خمسين الف جنيه وعشر فكاهات قديمة يرويها لكل قادم على قهوته . وهو يحب القرويين حبا جما لأنهم يرضون أن ينخدعوا له فيسلبهم أموالهم وأملاكهم .. والقرويون يحبونه حبا جما لانه يعرف كيف يخدعهم وابتسامته لا تفارق شفتيه .

وقال ناظر المدرسة بعد أن ابتعد الخواجة انسطاسى :

ـ نصرانى طيب !

وسأل عبد العظيم :

ـ وما هى دلائل طيبته ؟

ـ انه يمزح دائما مع الناس ويلقاهم بالبشر والترحاب ... انه صديقى !

— وددت أن يكون جافا غليظ القلب والطبع .
— ولم ؟
— لانه حينذاك لا يتسلل الى قلوب السذج فيسلبهم ثرواتهم بابتسامته .
— ولكنك لا تعرفه ..
— أعرفه جيدا .. فانه واحد من هؤلاء الصعاليك الذين ضاقت بهم بلادهم فحطوا رحالهم فى بلادنا يسطون على أموالنا فى ترفع وخيلاء .. من منكم رأى هذا الرجل يوم جاء الى هذه المنطقة ؟ كانت ثروته على الاكثر خمسين جنيها . وراح يستثمرها بالربا الفاحش والتجارة الممنوعة حتى أثرى ، أذكر واحدا من هؤلاء كان يقرض الجنيه الواحد وفائدته فى اليوم بيضة واحدة . ويستهين القروى بهذه الفائدة فيدفعها وهو يضحك وبعد قليل يبكى حين يجد نفسه فى العراء .

— ولكنه لا يضرب الناس على أيديهم ليقترضوا منه ؟
— هذه هى المشكلة الكبرى الفقر التى ترغم القرويين على الاقتراض بالربا الفاحش والاقتراض يعدى . أذكر أن أحد الأثرياء رأى أنه يكاد ينفرد وحده بعدم الاقتراض من البنك العقارى ورأى القرويين جميعا مدينين الى آخر ما يملكون ولم يكن فى حاجة الى المال ولكن القدوة السيئة اجترفته فذهب الى البنك واقترض وما هى الا سنوات حتى أصبح أجيرا .

— انه مجنون
— أى فرق بين المجنون والعاقل .. فى هذه البيئة الجاهلة الفقيرة ؟

— انك متشائم أكثر مما ينبغى .. تعالوا بنا نزر الاستاذ عبد الله عبد الوهاب الفاجر الخفيف الروح . انه ناظر لمدرسة البنات الالزامية .. هو صديقى .!

وذهبوا اليه جميعا . وقد امتلات الطريق بالتـــــراب وانتشرت الحوانيت على الجانبين والقرويون يســـاومون على ما يشترون وقد أمسكوا بدوابهم وأطفالهم والقرويات يثرثرن حول مشاكل الحياة المعقدة . وانتهوا الى المدرسة فوجدوا ناظـــــرها فى انتظارهم . وهو شاب خفيف الروح يتخذ من دنياه صـــديقه الوفى الذى يتقبل منه جميع مقابحه وجميع فضائله .

وكان فى يوم العطلة يجلس فى المدرسة لانها أفضل من منزله. وكانت تجلس معه مدرستان لا يليق أن نهتم بالثانية منهما لأنها تافهة القدر أما الاولى وهى زينات فقد كانت رقيقـــة مهذبة وفى وجهها ما يشى بحقيقة عمرها وحقيقة البيئة التى نشأت فيهـــا

كان أبوها معلما أوليا فى القاهرة وقد استطاع رغم ذلك أن يحيا وأن يربى بناته فى سهولة حتى تخرجت كبراهن فى مدرسة المعلمات ومات الرجل دون أن يترك شيئا يذكر سوى اسمه . فعينت كريمته مدرسة فى الريف . وكانت تقتصـــــد من طعامها وشرابها لترسل الى أمها جانبا من المال .

وما من أحد يستطيع أن يرى زينات الا اعتقد أنها ترحب بزواجه منها . أى أنها كانت تعطى الى كل من يلقاها كفايته من اللطف والبشاشة . وكان يسرها أن تجد الكثيرين مفتونين بها وكان أجمل ما فيها عيناها . انها بنظرة منهما كانت قادرة عــــلى أن تسلبك هناءتك وراحتك وتفقدك الســـيطرة على أعصابك .. ولكنك مع ذلك لا تشتهيها أى أن أنوثتها كانت من الجفاف بحيث لا تتمنى أن نرتبط معها فى موعد غرام .

ولقد سحر الاستاذ عبد العظيم بهاتين العينين وحـــاول أن يستر ضعفه البشرى فعالج الحديث فى طائفة من الموضوعات المعقدة ليثير انتباهها ولكنه أخفق .

كانت هذه الفتاة تظهر اهتمامها بالشعر والآدب وتود أن يعرف

الناس عنها ذلك ولكن هذا الاهتمام لم يكن يمس قلبها .. كانت تنطوى على رغائب أنوثية حادة . وقد أعجبت بالاستاذ عبد العظيم كشاب ولم تعجب به كأديب موهوب .

ولما عادوا الى قرية الشيخ سند فى المساء كان القرويون يزاحمونهم فى الطريق وهم عائدون من حقولهم . وكان مشهد الحقول فاتنا جذابا والطيور تثرثر حول كل ما رأته فى يومها والكلاب تنبح وناظر المدرسة يتحدث عن أصدقائه الوجهاء .

وقال الشاب الذى فتنته صراحة عبد العظيم :

– اسمع يا أستاذ عبد العظيم .. لا تحاول الجرى وراء هذه الفتاة .. انها مخطوبة .

– مخطوبة !

– ولمن ؟ لشاب شرير فاسد اسمه محسن ... شقيق عمدة البندر ! ولكنه راح يجرى ويركض وراءها حتى فى أحلامه .

نهاية مكافح

كانت مدرسة الشيخ « سند » الالزامية تأوى الى منزل متهدم استأجرته وزارة المعارف من عمدة سابق بجنيهين فى الشهر . فلما ذهب عبد العظيم الى المدرسة فى الصباح كان يفكر فى عينى زينات .

وشهد التلاميذ الصغار فى حال من البؤس وخشونة العيش فامتزج فى قلبه الحب والرثاء .

وقال ناظر المدرسة :

ــ ربما حضر المفتش فى هذين اليومين .. انه يفاجئنا بزياراته ولو أنه صديقى ..

ــ وما اسمه ؟

ــ عبد السلام بك محمود قريب حسين بك خيرى مدير مصلحة الاملاك .

ــ آه ــ أعرفه .. لو انقلب جهله علما لكان الها كما يقول ولى الدين يكن .

ــ سمعت عنه . أهو قريب عدلى يكن باشا ؟

ــ ان عدلى يكن باشا هو قريب ولى الدين يكن .. الا يمكن لشاعر أو أديب أن يسمو فى نظرك الا اذا كان قريبا اوواحد من ذوى الالقاب ؟

وابتلع الناظر هذه اللطمة الخفيفة وراح يدارى خجـــــله وهو يقـــــــول .

ـ ألم تقرأ الصحف ؟ .. ان النائب نور الدين عباس يقول عن المعلمين الالزاميين أنهم جهلاء

ـ وما حظ هذا النائب من العلم ؟ .. آه لقد عرفته .. كان موظفا صغيرا فى مصلحة الاحصاء وضبطه البوليس مرة يهـرب مخدرات ولــكنه برىء .. وارتمي في أحضـان أحـــد الاحزاب فصنع منه نائبا محترما .

ثم واصل عبد العظيم حديثه :

ـ ماذا يقول ؟ .. المعلم الالزامى جاهل ؟ .. ألم ينجح فى مدرسته ويظفر بشهادتها .. ان المعلم الالـــزامى اذ فاته من من التعليم أفاده من حياته العامة وكثير من المعــلمين الالزاميين يطالع المؤلفات الحديثة أكثر مما يطالع غالبية النواب .

وقـال النـــاظر

ـ أنا مثلا أقرأ كل كتاب أسمع عنه .. صدقنى هل يعجبـك عباس العقاد ؟

وتجاهل عبد العظيم السؤال وراح يتحدث عن المعلم الالزامى فقال :

ـ وماذا يقولون أيضا عن المعلم الازامى ؟.. انه يتلقى مناهج الدراسة فى السنة الرابعة بالمدارس الثانوية خلا اللغة الانجليزية . وهو قادر على أن يعلم هؤلاء الاطفال كل ماهم فى حاجة الى تعلمه .. أم ترى المدارس الالزامية فى حاجة الى معلم تخرج فى اكسفورد؟

وفى هذه اللحظة جاء والد تلميـذ لايريد أن يتعـــلم ابنه فى المدرسة . فان التعليم يفسده وكان يسحت وليده من ذراعه ثم يلطمه اذا تأخر وبعد أن حيا الرجال قال :

ـ لا أريد أن أعلم ابنى ..

ـ لمـــاذا ؟ ..

ـ لأن التعليم أفسده .. انه يسأل عن كل شيء .. تصـــور ياحضرة الناظر أنه سألنى كيف يتكون اللبن فى ضرع البقرة ؟.. ويسألنى لماذا نحن فقراء ؟ .. لست آلها حتى أعلم !

وقال الناظر :

ـ هذا ولد قليل الادب . كيف توجه الى أبيك هذه الاسـئلة الوقحة ؟

وقال عبد العظيم :

ـ انه ولد ذكى .. بل هو خارق الذكاء . وليس مايسأل عنه من سوء الادب فى شيء .

واهتاج والد الصبى ثم قال :

ـ كيف تقول هذا ؟ انه ولد غبى مافى ذلك من شك .. ولو كان ذكيا لمـا سأل هذه الاسئلة ..

ـ قل لى .. كيف عرفت أن البقرة هى البقرة ؟

وضحك الرجل قائلا :

ـ يا له من سؤال !

ثم أخذته العزة بالاثم فصاح :

ـ انا لاأعرف البقرة ؟ كيف تجرؤ على هذا ؟

ـ ليس قصدى أن أهينك .. انك عرفت البقرة حين سـألت عنها .. وقيل لك ان اسمها البقرة .. فما ذنب هذا الوليد فى ان يسأل ؟

لكن الوالد أصر على جهله وغبائه فتركه عبد العظيم وهومأخوذ

بذكاء هـــذا الصبى .. لو انه كان فى المدينـــة لأصبح بعد قليل من أذكى الشـــباب !

وجاء أحد المدرسين فأعرب عن اعتقاده بأن نهـــايته قد قربت لانه يشعر بآلام لاتطاق .. هنا .. فى الظهر . وجعل يتحسس مكانها بيده وقال أنه قرأ مرة أن هذه الالام تقضى الى الموت المحقق

وقال عبد العظيم :

ــ اذهب الى الطبيب ..

ــ أين .. فى البندر ؟. لايوجد سوى الدكتور حلمى وهو فى حاجة الى طبيب ينقذه من أوجاعه .

ــ اذن كيف تعالج نفسك ؟

وقال ناظر المدرسة :

ــ لقد أصابه برد . هذا كل ماهناك .. ولو أنه اتبع نصيحتى لمـــا نام فى العراء وتعرض لبرودة الليل .. وطالمـــا حذرته من هذه الفعلة السوداء حتى أن صديقى ..

ــ ولكننى لا أنام فى العراء ..

ــ لقد قلت لى ذلك . قلت لى أمام صديقى محمد بك عين أعيان الشهاوية انك لاتطيق النوم والنوافذ مغلقة .

وقال عبد العظيم :

ــ ليست هذه هى المسألة .. المسألة أن هنا مريضا لايجـــد طبيبا يعالجه .. ومد يده فأمسك جبهة المريض . ولكنه سرعان مارفعها لانه أحس بالنار تلتهب فقال :

ــ انك مريض جدا يا أستاذ اسماعيل

ــ مريض ! أنا أكاد اموت ياأستاذ

ـ ولمـاذا غادرت فراشك ؟

ـ وهل أستطيع أن أبقى فيه ؟ ..ليس للمعلم الالزامى الحق فى أن يمرض ..!

وفى هذه الاثناء كان الاطفال قد انتشروا فى فناء المدرسةيعبثون ويمرحون ويلوثون الجدران بالكتابات الساذجة الدنسة ..وغالبا ماكانوا يعجزون عن حل مشاكلهم فيتصايحون ويصخبون ..أما المدرس المريض فقد وقع عـلى الارض لفرط ما يعانيه من آلام .. واصفر لون وجهه وتساقط العرق منه . وجعلت أنفاسه تعلو .

وقال ناظر المدرسة مأخوذا :

ـ عد الى بيتك يا استاذ اسماعيل .

ـ أعود .. أعود .. آه

وقال عبد العظيم :

ـ ان الرجل مصاب بالحمى .. مافى ذلك شك وأولى به أن ينتقل الى المستشفى حالا ..

وارتجف ناظر المدرسة ثم قال

ـ حمى ! يا ويلى .. سوف يحضر الى هنا رجال الصحة لتطهير المدرسة من الافضل أن يذهب الاستاذ اسماعيل الى بيته ..

وتجلى الهلع على وجهه .. ولكن المريض كان فى أقصى حالات التعب . فجعل يئن ويتوجع .

وقال عبد العظيم :

ـ ليس هذا مهما .. المهم أن ينقل زميلنا فورا الى المستشفى

ـ هل تعرف المسافة بيننا وبين أقرب مسـتشفى ؟ ثلاثون كيلو مترا .. يقطعها المريض على حماره يهزه ويزيد فى آلامه ..

ولـكن لم يكن بد من ذلك .. فحملوه وذهبوا به الى المستشفى وقبل أن يصل الى هناك كان قد أسلم الروح ..

وجاء النبأ المروع الى القرية فشملها الحزن الحقيقى حتى أعداء المتوفى اصابهم الاسى .. لانهم يرون فى الموت قضاء يعلو على سائر الخصومات .

وقال عبد العظيم :

– هذا شهيد لا تعوزه أمجاد الاستشهاد ولكنه سوف يطوى فى ثلاثة سطور نعى تنشرها احدى الصحف . وهم ينعون على المعلم الالزامى حظه ولا يدركون مايستهدف له ذلك المعلم من أحداث وارزاء ..

وهز ناظر المدرسة رأسه موافقا ثم قال :

– انا لله وانا اليه راجعون ..

حب العبقرى

طال تردد عبد العظيم على البندر كلما وجد فرصة ملائمة لذلك ، وكان يحاول أن يبرر هذا الأسلوك أمام نفسه بأنه رجل غريب عن هذه المنطقة . ومن الخير له أن يروح عن نفسه فى مكان دخلته طلائع المدنية وكان يغضب أشد الغضب حين يرفض عقله قبول هذا العذر .

انها « زينات » التى تجذبه الى هذا المكان أو على الاصح انها عين زينات التى تدس فى خفايا قلبه نظراتها وكأنها سهام مسمومة

ورأى أن يعالج الامر بأسلوب منطقى معقول ، فقال :

ــ ان هذه الفتاة غريبة مثله وأنه يعطف عليها .. مجرد عطف .. لا شىء أكثر من ذلك .

لا شىء أكثر من ذلك أقسم بالله العظيم !

وأحس الاهتياج الشديد يعصف بكيانه كله حين بلغ مرحلة دقيقة شائكة من التناقض الواضح بين عقله وبين عاطفته . وكان يطمع أن يتغلب عقله على هواه كرجل يحس مدى ما يصيبه من التدلى فى هوة الحمق والطيش . ولكنه من جهة أخرى كان يود أن يجرى وراء زينات راكضا لاهثا وليذهب عقله الى الجحيم .

وكان يقنع بالنظر اليها اذا لقيها وتكمل سعادته حين يحادثها . فاذا لم يوفق الى لقائها رضى بأنه يعيش فى بلدة تعيش هى فيها . وأن أنفاسها الرقيقة العطرة قد تختلط فى الجو بأنفاسه الملتهبة .

وهو يتمثلها فى منزلها درة تضىء ولابد لها وهى تعد الشاى

والطعام أن تترنم بأبيات من الشعر .. وأبها أم فى القاهرة !..
يارحمن !.. ماعسى أن تكون أمها هذه ؟.. امرأة فى الخامسة
والاربعين .. توفى زوجها فبكته بكل مافى عينيها من دموع ..
وجعلت تفتش عن أمجاده كلها لترويها لجاراتها فى ثرثرة لاتنقطع.
وبعد شهرين لم تجد فيما بينها وبين نفسها مايمنع من زواجها
بأول راغب فى الزواج ..

لابد أن تكون الام كذلك .. وهل لهذه الام أخت تكبرها ؟..
ربما كانت الاخت الكبيرة تبيع الاقمشة وادوات الزينة فى المنازل
وتملك نصف بيت فى حى السيدة زينب .

وسره أن يجرى وراء خيالاته هذه وأن يدنو من الواقع فى
تخيله . ولكنه أحس الاسى فجأة لانه محروم من مودة زينات
فصرخ قائلا ..

– عليها اللعنة .. ربما لم يكن لها أم على الاطلاق ..
وجاء اليه زميل شاب فقال له :

– نريد يا أستاذ عبد العظيم أن نختارك ممثلا لنا فى الاتحاد
العام .. وقد تحدثت مع جميع الاخوان فوافقوا حتى ناظر
المدرسة .. وافق وقال أنك صديقه ..

وقال عبد العظيم :

– لكن .. لماذا لم تستشرنى قبل أن تبذل هذا المجهود ؟

– كنت أحسب انك لاتمانع ..

– اننى أمانع فما هو الخير فى أن أذهب الى القاهرة وأجتمع
مع بعض الزملاء ليشكو كل واحد منا همومه الى الآخر .. وقد
نترك الانانية جانبا فنتحدث عن هموم الزملاء . وينتهى الامر بأن
نكتب مذكرة بمطالبنا يذهب وفد صغير ليقدمها الى وزير أو الى

موظف كبير فيتقبلها هاشا باشا .. وبعد أن نغادر مكتبه يلقى بها دون أن يقرأها فى سلة المهملات ..

ـ ولـكن الاتحاد قوة ..

ـ هذا صحيح .. اتحاد العصى السبع التى جمعها والد قبل أن يحتضر .. الى آخر الحكاية التى تنتهى ببيتين من الشعر .. ولكن اتحاد سبعة من الآدميين اختلفت ميولهم وتباينت نوازعهم .. وتنافت أهدافهم ليس قوة .. بل هو غاية الضعف .

ـ هـذا غريب ..

ـ لايوجد ماهو أشد غرابة من الحقيقة التى يتخطاها كثيرمن العقول .. هل رأيت اتحادا أشد وأقوى من اتحاد الالمـان تحت راية هتلر . كان خصومهم ضعافا متفـــرقين وكانوا هم حزمة واحدة . حتى ليمكن أن يصدق العقل ماوراه بعض البــاحثين عنهم من انك اذا دخلت منزل ألمـانى وشهدته وقت الغداء مثــلا فثق أن ألوان الطعام التى تقدم هى نفس الالوان التى تقـدم فى كل منزل آخر ومع ذلك فأنت تعرف بقية القصـــة . وكيف انتهت الحرب بهزيمة المانيا ..!

ـ هـذا غريب ..

واكتفى صاحبه بهذا الرد اذ أنه لم يكن يتصور أن يرفض معلم تمثيل زملائه فى الاتحاد العام ولم يكن يتصورأن يصبحالاتحاد هزيمة . وكذلك عبد العظيم لم يكن يؤمن بشىء من هذا الذى قاله .. ولكنه كان مغرما بأن يباغت محدثه بمثل هذه المتناقضات .

وقال عبد العظيم :

ـ اننى لاأومن بشىء من هذا الذى قلته ولكننى زاهد فى هذا المجد .. أو على الاصح لست أجد فى نفسى القدرة الكافية لان أمثل دور السيد المسيح فى حمل هموم عشرات الالوف من الزملاء .

— ولكن الزملاء وافقوا .. ألست ديموقراطيا ؟
— ما أتعس هذه الكلمة .. ديموقراطية .. فان لصوص المال الدوليين لم يجدوا فى سبيل خداع الشعوب أفضل من هـــذه الكلمة .. ديموقراطية .. ومعناها .. أن تصبح مغفلا اذا كان الاكثرون مغفلين ..

— ولكنك لاتعنى هذا حقا .. فاننى لقيت زينات وحادثتها فى الامر ففرحت واشرق وجهها بالبشر وقالت انك خير من يمثل اخوانه فى الاتحــاد ..

— آه .. قالت هذا ..

واهتاج الفيلسوف المفكر وجعل يهتز فى مقعده ويتمايل كأنما مسته كهرباء .. وأقبل على محدثه متهلل الوجه قائلا :
— هيه ماذا قالت أيضا ؟

— قالت أنها تود أن تراك فى أعظم مناصب الدولة وانها تتمنى أن تراك فى القـــاهرة .

— آه ...

وضرب براحة يده على ركبته واختفت فلسفته وحكمته .. وحل محلها الشباب الغر الطائش الذى يفكر بقلبه .. ويرفض أن يعترف بوجود العقل فى رأسه .

— وماذا قالت أيضا ؟

— قالت أنها تسر لو رأتك كل يوم .. وأنها معجبة برجولتك وسلامة ذوقك .

— يا ويحى .. لم أكن أعلم أنها ذكية أيضا .. ذوقى .. أنهــا بذلك تمتدح نفسها .

وخشى أن يكون قد اندفع فى حماقته فى الافضاء بكل مايحوى قلبه فكف عن التحدث عنها وقال لصاحبه :
— ليس هناك مايمنع من قبولى هذا المنصب .

وضحك وان لم يكن فى الامر ما يوجب ذلك.. ولكنه كان يحاول أن يخفى حقيقة شأنه عن الاعين .. ان الذى فى قلبه أقوى وأشد من ان يداريه بالصمت فانطلق يثرثر حول موضوعات تافهة .

وقال له صاحبه حذار أن تضعف أو تلين أمام خصمك .. انه صديق سكرتير الاتحاد العام .

ـ ولكن ماذا أصنع اذا كان خصمى قويا ؟

ـ دع لنا الامر .

وسافر واحد منهم الى حيث يقيم منافسه فاقنعه بالانسحاب وقصد عبد العظيم الى القاهرة . ولم يكن قد رآها من قبل فبدت فى عينيه ثقيلة موحشة ، كل مافيها مصنوع يبهر العين ولكنه لاينفذ الى القلب . ورأى أهلها يتراكضون على غير هدى.. كأن وراءهم نيرانا مشبوبة تستحثهم على أن يسرعوا .. ولم يكن أحد يلتفت الى أحد الا أولئك التنابلة الذين يجلسون فى القهاوى.

ورأت عينه كثيرا من ألوان الجمال من فتيات يسرفن فى الخلاعة والتبذل .. وكان يحسب أن أولئك الرجال الذين يسيرون معهن عشاق مدلهون وشد ما أصابه الذهول والغضب حين عرف أنهم أزواج واخوة وآباء

ـ أهذه هى المدينة الكبيرة !؟

وجعل يفكر فى الامر على طريقته الخاصة .. هذه هى الامنية التى جاشت فى صدر الرجل حين تمنى أن تكون المرأة كذلك فى المنزل رشيقة فاتنة فلما خرجت الى الطريق العام لم يعد يفرق بين امرأته وخليلته ..

وحل ضيفا على صديق له من قرية قريبة من قريته ..وكان صديقه هذا موظفا أعزب يعيش ليومه ولا يطيق أن يفكر فى غده ولا يستطيع .. لكثرة مشاغله ـ أن يسمح لذكريات أمسه بأن تراود مخيلته ..

وتعانقا ثم أسلما نفسيهما لسلطان النوم .

هكذا كنا والآن نريد أن نكون

كانت قرية الشيخ سند واحـــدة من قرى كثـيرة يملكها اقطاعى . وكان القانون السائد فى هذه المنطقة هو الشهوة الطاغية .. والنزوات المستبدة وكان الاقطاعى ينظر الى هذه المخلوقات الآدمية كما ينظر الى الماشية والى الزروع التى يملكها وهو لايفرق بين رأس آدمى وبين رأس نخلة اذا شاء أن يحتزه .

وكانت القرية تسبح فى ضوء الشمس ولكن القرويين يتعثرون فى الاوحال والقاذورات التى تغمر طرقاتها أما اذا جاء الليـــل سبحت القرية فى ظلمة بغيضة موحشة وراحت الهوام والدواب تشاركهم فى مخادعهم . وقد ألفوا الفاقة والذل حتى لم تعـــد ألسنتهم قادرة على أن تشكوهما لغير الله .

وانقطعت صلاتهم بهـــذا الشىء المسمى قانونا . فان قانون قريتهم الذى يخضعون له مكتوب على ظهورهم بالسياط . حقيقة أنهم يعرفون أن هناك حكومة تقوم فى مصر تستنزف منهم دماءهم كضرائب مقررة ، وفى مركز البوليس مأمور يعاونه ضباط وموظفون وهناك وكيل نيابة يحقق الجرائم . بل هناك محاكم تقضى بالعدل بين الناس ولكن .. أهم مصريون ؟ ثم ماهو الفرق بين مايعرفونه عن هذه الاشياء وعن الجنى الذى يبتلع الحصى ويحملق فى وجوه المارة .. كلاهما أسطورة من الاساطير !

ومن قبيل تقرير الواقع يجب القول بأنهم رأوا مأمور مركز البوليس والضابط ووكيـل النيابة يحضرون الى القـرية ليتـولوا التحقيق فى جرائم كثيرة . ولكنهم يجـــدون البرىء يسحب من

رقبته الى السجن . والمجرم يكاد هؤلاء الحكام يلثمون التراب الذى يصافحه حذاؤه ..

وكان أشدمايخافه الاقطاعى..أولئك المعلمون الذين ينتشرون فى قرآه كالجراد يلتهمون الاخضر واليابس من نفوذه وسلطانه وهو يعلم أنه مايكاد الواحد منهم يطالع بحثا فى صحيفة أوكتابا عن الاشتراكية حتى يروح يهمس فى آذان القرويين بالمطاعن القاسية فى الاقطاع والاقطاعيين ..

وكان صاحب السعادة على بهجت باشا .. وهو الاقطاعى يجرى وراء هؤلاء المعلمين يقربهم منه ويصفيهم ويغدق عليهم من الهبات . أما اذا تمرد واحد منهم عليه فان كلمة واحدة منه كفيلة بأن تقذف به الى مدرسة على حدود السودان !

وقد غضب صاحب السعادة مما كان يسمعه من أنباءالنشاط المروع الذى يبذله مدرس اسمه عبد العظيم الشلقامى .. وقد حاول أن يستدرجه الى الخضوع له فأبى . وكان صاحب السعادة قد اقترف ضد احدى زوجاته جريمة بشعة فقدخنقها بيديه حين ضبطته فى وضع شائن مع احدى الخادمات .

تلقف القرويون النبأ ليدفنوه فى صدورهم ولا يخرج منها الا ليروى همسا . أما عبد العظيم فقد راح يحطم به رءوس الاشهاد . وكان قادرا على أن يعطى صورة بشعة لهذا الحادث الاليم . ويسرف فى الحملة على الاقطاعى وكان القرويون يهربون من لقائه على أن واحدا أو اثنين كانا يجدان الجرأة فى الاصغاءاليه

وعلم صاحب السعادة نبأ هذه الحملة وعرف اسم مدبرها . فغضب لذلك غضبا شديدا وكان فى استطاعته أن يزهق روحه.. رصاصة فى حجم نصف الاصبع ترديه قتيلا ..

على أن صاحب السعادة بدد هذه الفكرة بمجرد أن مرت فى خاطره .. فهو يقتل القرويين الذين يعملون فى ضياعه . كما

يقتل الذباب . ولكن مدرسا الزاميا له نقابة لن تسكت على مقتله وربما وجدت الصحف فى الحادث مادة للتهويل .

وكأن أن سعى الى نقله . فتلقى عبد العظيم النبأ وكأنه كان يتوقعه . ولكنه سعى وهو فى القاهرة الى بقائه ونجح .

أما أهل الزوجة القتيل فقد حاولوا الثأر ولكنهم خابوا وسعى الاقطاعى الى شراء الثأر منهم بماله الكثير .

وتتبدل الدنيا حول هؤلاء القرويين وهم كتماثيل أجدادهم الفراعنة لايتبدلون ويبذل العباقرة دماءهم فى اختراعات تزدهر بها الانسانية وترتقى ويصغون الى أنباء هذه الاختراعات فيهزون رءوسهم ولا يصدقونها . وتنشب الحروب فى شتى بقاع الأرض .. وتنشأ مذاهب ويصطرع النفوذ الدولى فى هذا المكان أو ذلك وهم على عهدهم لايبالون شيئا

لقد أبرز الفقر أنانيتهم الوقحة فلا يلقون بالا الى مايقع فى هذه الدنيا الواسعة .. ان كل واحد من هؤلاء القرويين الذين يحكمهم الاقطاعى الجبار يحاول أن يدافع عن عرضه بالاستخفار ويحاول أن يدافع عن رقبته بالهرب .

وليس عنده حياة أفضل يطمع فى الوصول اليها سوى حياة الآخرة . وحين يصغى الى كلمات رجل الدين وهو يتفنن فى تصوير جنات الخلد وما أعده الله فيها للمتقين تأخذه نشوة عنيفة قاسية . فيرفع يديه الى السماء عسى أن يقترب أجله ويجوز الصراط ثم يأذن له رضوان بدخول الفردوس .!

والقطيع الآدمى الذى يركض هربا من سياط الاقطاع .. ماض فى طريقه يدفن همومه كلها فى جوف الارض . حين يضرب وجهها بفأسه . فاذا تخلف واحد من هذا القطيع . قتل أو سجن أومات .. التفت أفراده الى الوراء فى صمت ليودعوه .

ان ايمانهم بالله عميق يملأ قلوبهم كلها . ولـــكنهم لايكادون
يفرقون بين الخير والشر فالحاجز بين الايمان والمروق من الهوان
بحيث يمكنهم أن يتخطوه وهم مغمضو العينين والفرائض الدينية
يؤدونها أقرب مايكون أداؤها الى العادة المتكررة لا الى العبـــادة
الصحيحة وعندئذ يصبح القتل والسرقة والكذب أشياء تســتوى
وخبزهم اليومى . فالقاتل والسارق والــكذاب لايخشى أن يعير
بجريمته . ولكنه يخشى أن يقع عليه العقاب .

ولقد بلغ بهم الامر الى حـــد أنهم لايكادون يعترفون بوجود
الشيطان بينهم وقدرته على اغوائهم .. حقيقة أنهم يؤمنون بوجوده
ويلعنونه فى كل وقت . ولكنهم فى أعماق قلوبهم يوقنون بأن الشر
يجيء اليهم من شيطان آخر يحلى أصــابعه بخواتم من المـــاس
ثمنها خمسة عشر ألف جنيه .

وتوارت ضمائرهم الجريحة تحـــاول أن تختفى وراء ستر
مهلهل من الذل وبلادة الحس والجمود . وتحطمت كبرياؤهم على
صخرة الظلم فاذا بحثت عن أشلائها وجدتها ترقص فى الوحل على
نغمات الانين الصاعد من أفواه اختلطت فيها أصـــوات حشرجة
الموت .. وصرخات اليأس .

وصاحب السعادة يستقدم ضيوفه من القاهرة للفرجة على
هذه البقايا الآدمية وقد يذهب به حب المحاكاة الى أن يعد الجياد
المطهمة يركبها الضيوف ويركضون بها فى الحقول ابتغاء الصـــيد
الذى يجرى فى بلاد الغرب .. وغالبا مايحدث أن تقتحم الجيـــاد
حقل قروى مسكين . لاتزيد مساحته على بضعة قراريط فتحيل
زرعه الى حطام والرجل ينظر الى هذه الجريمة المخجلة ولايملك
أن يهمس فيما بينه وبين نفسه بكلمة استنكار .

وذات يوم كان ضيوف صاحب السعادة يصطادون فى الحقول .
ومن بينهم شاب لاتفارق جيبه زجاجة الخمر كأنها حافظة نقوده .
ولا عمل له الا أن يصبح عشيقا بالاجر لزوجة من سيدات المجتمع

الراقى . حين تريد أن تغيظ زوجها الذى يخونها مع زوجة رجل فى المجتمع الراقى . ولمح الشاب فتاة قروية تجمع أعواد الذرة. فجرى اليها واحتضنها ثم جعل يقبلها وهى تصرخ وتحاول أن تتخلص من يديه وهو ماض فى عبثه ومجونه وجاء شقيق الفتاة وكهل يمت اليها صلة قرابة يريدان انقاذها ولكن صاحب السعادة رأى من واجب الاريحية والمروءة أن يضربهما بالسوط لاجترائهما على مضايقة ضيفه .

وسيق المجرمان الى القصر . وتولى الحراس مهمة تأديبهما .. جزاء دفاعهما عن عرضهما .

وقال صاحب السعادة لخادمه الخاص وهو يخلع حذاءه :

— مارأيت فى حياتى وقاحة كهذه الوقاحة .. ضيف عيزعلى يريد أن يستمتع بالمزاح مع هذه القروية الدميمة .. ضيفى !

واعتبرها مسألة كرامة وأوصى بأن يسجن هذان الوغدان ثلاثة أيام بغير طعام .

ولم يكن أحد يهتم بهذه المآسى سوى الطيور السابحة فى الجو وهى ترويها فى حمق وطيش وفى البرلمان يقف نائب محترم ليسأل الحكومة عما صنعت من وسائل تحقيق العدالة الاجتماعية للقرويين؟

ويقف وزير الخارجية ليجيب عن رئيس الحكومة بأنه فى ١٧ أبريل سنة ١٩١٣ ،صدر قرار بتأليف لجنة للبحث فى رفع مستوى الحياة فى القرية وفى ٣ أكتوبر سنة ١٩١٨ أضيفت مادة جديدة الى القانون رقم ٨٧ تبيح للعامل الزراعى أن يشكو من كل ظلم يقع عليه وفى ديسمبر .. آه .. فى ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٣١ تألفت لجنة لتقرير حق القرية فى اختيار العمدة وفى ١٥ يناير ..

وفى هذه الاثناء يقول نائب محترم لنائب محترم :

— من الذى غلب .. الاهلى أم المختلط ؟

ويهمس الشيخ عبد السميع عبد الصبور السعداوى فى اذن جاره :

ـ الا تعرف دواء لوجع الظهر ؟

ويضع يده على ظهره وهو يقول :

ـ هنا .. ألم فظيع ياسعادة البك وخاصة فى الليل !

ويمضى وزير الخارجية فى اجابته على هذا النحو

ـ وفى ٥ أغسطس سنة ١٩٤٣ قرر مجلس الوزراء تقديم اعانه لكل قرية أصيبت بالحريق وجاء القانون رقم ١٨٣ فحرم على القرويين أن يضعوا الوقود فوق أسطح أكواخهم اتقاء لشر الحرائق

ثم يمد وزير الخارجية يده الى قدح الماء . فيشرب جرعة منه ويقول :

ـ وهكذا ياحضرات النواب المحترمين ترون أن حكومتكم لم تدخر جهدا فى سبيل توفير أسباب النهوض بحياة القرية وهى دائبة فى تحقيق المشروعات التى تعود على البلاد بالخير والفلاح .

ويجد النواب الذين لم يغادروا قاعة الجلسة أن من واجبهم أن يصفقوا تصفيقا حادا لمعالى الوزير .

فى القاهرة

أمضى عبد العظيم فى القـــاهرة بضعة أيام وكان لا يدرى على التحقيق أو يعجب بها أم يسخط عليها .. كلما سار فى طريقـــه وقف على رأسه ليقرأ عنوانه فى لوحة زرقاء كتب عليها الاســـم باللغة العربية والافرنجية وكان يقول لنفسه :

— هذا هو شارع المدبولى .. وهذا شارع الصنافيرى .

كان يقرأ عناوين هذه الطرقات كثيرا فلما وجد نفسه يعبرها ويسير فيها أستخفه الفرح كما لو أنه أول واحد كشف عنها ... وكان يطيب له أن يسأل المارة عن المكان الذى يقصد اليه ويصغى الى هؤلاء الناس وهم يتزاحمون من حوله على ارشاده وهدايته وأن الواحد منهم ليسمع غريبا يسأل سواه عن طريق فيقف رغم أنه كان متعجلا ويروح يقترح عليه بأن يمشى من هنا الى هنـــاك ثم يسير الى اليسار وهنا يتدخل أحد المـارة قائلا :

لا .. لا هذا الطريق صعب .. امشى الى جوار هذا المتجر الى آخر الشـــارع وامض الى اليمين قليـــلا تجد على يدك اليسرى شارعا آخر فدعه . ودع الشارع الذى يليه .. ثم . .

ويظل يرشده فى حرص واناة وهو جاد موفور العناية كأنما يرسم له الطريق الى السعادة وهذه هى الفضيلة الوحيدة التى لمسها عبد العظيم فى القاهريين .. فضيلة السخاء بارشاد كـــل أجنبى عنهم الى غايته .

واذ هو يسير فى طريق الهرم طاب له أن يتولى هذه الفضيلة بالبحث . فرأى أنه ربما كان هؤلاء القاهريون يتلطفون مع الاجنبى لانهم هم أنفسهم أو الآباء أو الاجداد وفدوا على القاهرة من بلاد بعيدة واحتاجوا الى السؤال عن كثير من معالمها فهم يردون ذلك الجميل . أو أن بعضا تضطره ظروفه الى الترحال فى بلاد أخرى يحتاج الى من يرشده فيها . فهم بذلك يؤدون الدين مقدما .

وركب الترام لغير وجهة معينة ، فقد لذ له أن يجرب ركوب هذه الآلة التى تجرى فى حماقة وصخب ولقى الى جانبه فتاة جميلة ترمقه بين حين وآخر بنظرات الاغراء ومع أنه كان يتزمت فى مواجهة هذه المواقف . الا أنه لم يكن قديسا .

وطاب له أن يجد مخلوقة جميلة تعنى بشأنه وتوليه بعض الاهتمام . والتلطف ولا يدرى كيف مرت بذهنه فى هذه اللحظة صورة ناظر المدرسة .. لو أن هذا الناظر فى موقفه هذا ورأى فتاة توليه اهتمامها وتتودد اليه .. اذن لنسى صداقة وكيل البريد وناظر المحطة . بل انه لينسى صداقة ضابط النقطة أيضا .

وجرى التخاطب بالعينين الى التخاطب باللسان وعرف أن الفتاة عرفت أنه قروى يزور القاهرة فسره هذا وملأ قلبه طربا .
ولما جاء عامل التذاكر اشترى تذكرتين فلم تكن تعوزه فضيلة المجاملة فى مثل هذه المناسبات . ولمحت الفتاة ما فى حافظته من نقود فاذا هو لا يعدو عشرات القروش .. وكانت تتوقع أن ترى غير ذلك . وأحس الجفاء فى سلوكها . ولم تلبث أن غادرت الترام .

وخيل اليه فى أول الامر أنه لا يعرف سبب هذا الغضب الفجائى .. كلا .. ولا يدرى كيف تبدلت حالها من ابتسام الى عبوس .

وجعل يتابع الحوادث بذهنه ويرسم لها صورة واضحة وسرعان ما قال لنفسه :

— يا ويحى .. لقد عرفت السبب فى هذا الغضب .. رأت رأس مالى فاحتقرته .. ولو عرفت انى أخفى الاوراق المالية الدسمة فى مكان آخر لبقيت مودتها الى نهاية الشوط .

وقال له رجل يركب معه :

— من الارياف أنت ؟

— نعم من الارياف ..

— اننى مأمور مركز سابق . طفت بأرياف مصر كلها وعرفت أكثر أهلها هل أنت موظف ؟

— نعم ... معلم الزامى .

وأحس الرجل بخيبة اليمة وهو يتلقف هذه اللطمة .. معلم الزامى .. وكان من أولئك الرجال الذين يسخون بمودتهم على جميع الناس .. فيبدأ بتعريف نفسه اليهم . مأمور مركز سابق .

كان يستمتع فى الماضى بسلطان هذا المنصب وهو لا يريد أن يدع هذا الحلم الذى عاش فيه بعد أن أحالوه الى المعاش لذلك تراه يتودد الى كل من يلقاه ممن يعرف ومن لا يعرف وهو قادر على أن يظل أياما طويلة يروى فيها ذكرياته ويتشدق بما صنع للريف من ضروب الاصلاح .

وقال مأمور المركز السابق :

— لقد أنصف المعلمون الالزاميون اليوم ما فى ذلك ريب .. مرتب الواحد منهم مرتب مأمور مركز .. ها .. ها

وضحك الى أقصى ما يستطيع أن يضحك .. وود لو أن

عبد العظيم ساهم معه فى الضحك من نكتته البديعة .. لــــكن عبد العظيم خيب أمله وراح يقول :

ــ وماذا لو أنصفوا المعلم الالزامى ؟ انهم بذلك ينشئون فى الريف طبقة جديدة تنهض به وتسعى الى اسعاده .

ــ ماذا تقول ؟ يوم كنت مأمور مركز فى البدارى .. كان ذلك عام ١٩٢٦ وكان المعلم الالزامى يقبض أربعة جنيهات فى الشهر وكان شديد الفرح بما وصل اليه .

ــ انه يستحق دون ريب هذا الانصاف وزيادة لانه يظل حياته كلها يشقى ليخرج من أبناء القرويين متعلمين .

ــ آه .. ولما كنت مأمور مركز السنبلاوين أقاموا لى حفلة تكريم رائعة وخطب فيها كثيرون والقى معلم الزامى قصيدة هى آية فى الجمال .

ــ اذن فلماذا تنعى على المعلم الالزامى حظه من الانصاف ؟

ــ أنا ..؟ لا .. عندما كنت مأمور مركز البدرشين كان مدير التعليم من أقاربى وطالما رجوت منه أن يعين معلمين الزاميين فكان يعينهم بناء على رغبتى .. لكن .

ــ لكن ماذا ؟ ..

ــ ان جيت للحق .. فأنا لا أحب للمعلم الالزامى أن يرتدى الكسوة الافرنجية .

ــ هذه مسألة أخرى .

ــ اذن فأنت توافقنى على رأيى ؟

ــ لا .. فان القروى لا دخل له فيما يفيد التلاميذ من المدرس وأنت فى الريف ترى شيخ الخفراء وكثيرا من القرويين المحدثين

يرتدون الجبة والعمامة ... ومن ثم لا يكون فرق بين المعلم الالزامى، وبين من يضرب جبهته بيمينه تعظيما لواحد مثل سعادتك .

كان الطريق طويلا ... وأحس مأمور المركز السابق أن اللطمة استقرت على وجهه ولكنه مع ذلك كان يتوق الى أن يروى ذكرياته، فتحرى من عبد العظيم عن البلدة التى يعمل فيها .. ولما عرف اسمها صاح فيه :

— اذن أنت تعرف على بهجت باشا ؟ ... انه رجل عظيم ..

ورضى عبد العظيم أن يجارى هذا المخلوق الذى يتفجر الفضول من جميع جوانبه ، وقال له :

— لا أعرفه ... ولايشرفنى أن أعرفه ... فانه وغد يسطو على القرويين البائسين ويذيقهم أبشع صنوف العذاب والهوان .. اما انه عظيم فهذا رأيك ... ولكنك ... لو جردته من ثروته فلن يزيد فى نظر سائر الناس ومن بينهم سعادتك عن صعلوك يجرى فى الطرقات حافى القدمين ..

لم يكن مأمور المركز يتوقع هذا الرد من معلم الزامى . فنسى جميع ذكرياته عن منصبه السابق وصاح فى محدثه :

— شيوعى أنت ؟ ... هذه شيوعية ؟!

— سمها كما شئت ولكننى أحتقر الشيوعية كما أحتقر الاقطاع .

وافترقا ...

ورأى عبد العظيم أن يذهب الى السينما فيشاهد هذه الشخوص العجيبة التى تبدو وتختفى فى ومضات كأن ابليس يتولى تحريكها بين يديه القاسيتين .

واختار له صديق رواية مصرية قالت الصحف عنها أنها

الدرة اللامعة التى أعادت للفيلم المصرى قيمته واعتباره ، ولم يخدع عبد العظيم بكل ما قرأ فى الصحف عنها فهذه كلمات يدفع عن كل سطر منها أجر محدود .... ولكنه أراد مع ذلك أن يجرب ـالب .. ابن أحد الباشوات يغرم بخادم جميلة وأبواه يطاردانه اللعبة وكانت حوادث القصة تدور حول هذا الموضوع التافه فى كل مكان غير أن الحب يتغلب فى النهاية كما هى عادة هذه القصص • ويضم الباشا الوالد خادمته القديمة الى صدره وتذرف زوجته دمعتين ... احتفالا بالموقف الجليل الذى جمع شمل الاسرة .

وقال عبد العظيم لصاحبه :

ــ ألم يجدوا غير هذه القصة ؟

ــ أية قصة ؟

ــ قصة الفيلم .. ألايوجد فى مشاكلنا المعقدة ما يغرى أولئك المؤلفين بتحريك أذهانهم وشحذ مواهبهم سوى هذا الموضوع السخيف .. شاب غنى أغرم بفتاة فقيرة .. أو شابة غنية أغرمت بشاب فقير .. هذا الموضوع الذى تدور حوله منذ عشرات السنين فى المسرح وفى السينما كما يدور الثور فى الساقية فلا مياهها تجف . ولا هو يكف عن الدوران .

ــ لست أفهم شيئا مما تقول ... ولكننى أفهم أن هذه الفتاة التى تمثل دور راقصة جميلة ويخيل الى أننى أعرفها .

ــ آه ... اذن فهم يصنعون من هذه الروايات السينمائية مصائد ليجبروا أمثالك على الافتتان بهذه الفتاة وتلك .

ــ هذا رأيى .. اسمح لى .. فأنا لا يهمنى موضوع الرواية بقدر ما تهمنى كميات الجمال فى أجسام الممثلات .

وقد اختزن عبد العظيم كل مشهد فى ذهنه من هذه القاهرة اللعوب .... وساءه أن يرى هؤلاء الشبان المتسكعين يبدون

كالفتيات فى أناقتهم ومظاهر التجميل والتطرية. وسأل نفسه :

— أليس لهؤلاء الشبان آباء ؟

وقال له عقله الناضج :

— ان آباءهم ليسوا فى حال تسمح لهم برقابة أبنائهم . انهم مشغولون بهذه الحياة الصاخبة التى يحبونها وكلها تبذل وعبث ومجون .

وقال لنفسه :

— ليت شعرى كيف يترقب الوطن من أولئك الشبان المتأنقين قدرة على حمايته والذود عنه وما لهم يسيرون فى الطـــــرقات متخاصرين ؟

وتقـــدم اليه وهو غارق فى خواطره رجل أفاق متسكع .. فقال له :

— هذا الرجل الذى يلعب على الارض لعبة الورقات الثلاث انه سكران وتستطيع أن تربح منه عشرات الجنيهات فجـــرب حظـك ..

— ولماذا تريدنى أن أربح منه ؟

— لان غيرك سيأخذ منه هذا الربح .

— ولماذا لا تحاول أنت ؟

— لاننى .. لاننى .. لا املك مالا .

— ليس هذا هو الموضوع .. ما دام الرجل سكران كما تقول فينبغى أن تذهب به الى منزله .. بدل ان تحرض الناس على أن يستغلوا ساعة ضعفه ليسلبوه نقوده .

— أنا ..؟ .. أنا لا أعرفه .

ـ وكذلك أنا . وهذه اللعبة قرأت عنها فى الصحف واذا كان يبدو لك أننى ساذج فليس الذنب ذنبى . ولكنه ذنب ذكائك .

ولم يفهم الرجل ما يقول .. وظل عبد العظيم واقفا يشـــهد هذه الخدعة القديمة . وقد تجمع الناس من كل جـانب وراح بعضهم يلعب فيربح ثم يخسر .

وجاء جندى البوليس يتهادى فى مشيته .. فلمــــا رأوه اختفوا . وسأل الجندى عبد العظيم :

ـ ماذا هناك ؟

ـ هناك جريمة كانت تنتظرك فلما استبطأت حضورك ذهبت الى حال سبيلها .

زواج المعلمات

كان فريق من اعضاء الاتحاد العام يجلسون فى ناديهم وخاضعوا فى موضوعات شتى .. وابرز كل واحد منهم اجمل ماعنده من المنى والاحلام حتى يصبح المعلم الالزامى خليقا بماهو أهله من منزلة رفيعة الشأن .

وقال أحدهم وكان يعانى من سوء الفهم :

– اشد مايروعنى فى مهمتنا الثقيلة هؤلاء المعلمات بعد زواجهن . فسأله عبد العظيم وعينه ترنو الى النافذة :

– ماذا فى زواجهن ؟ ..

– ان زواجهن يجلب وراءه كل يوم حكايات واقاويل .. وقال عبد العظيم :

– كل زواج يجلب وراءه حكايات وأقاويل .. هذه مسألة كيميائية . فان اجتماع عنصرين لابد أن يولد تفاعلا .. وقد تزوج ادم وحواء والقصص والاقاويل هى تسلية الانسانية الخالدة ..

– لا .. ليس هذا ولكنها حكايات من نوع اخر .

– افصح ..

– توجد معلمات علت بهن السن وقد أدخرن شيئا من المال . فيقعن فى شراك بعض الشباك يتزوجون منهن .. ثم خذ عندك من الاقاصيص التى تروى مايغم ..

ــ ليس هذا ذنبهن .. انه ذنب وزارة المعارف التى حرمت الزواج فى الماضى على المعلمات .. ثم عادت فأباحته .. ان المعلمة لا تملك أن تتجرد من أنوثتها مهما طال العمر وهى فى ذلك والرجل سواء .

ــ كيف ...

ــ الا تسمع عن رجال جاوزوا الخمسين والستين يتزوجون من فتيات صغيرات لقد سمعت ان أحد كبار الشيوخ الازهريين تزوج وهو فى التسعين من فتاة فى العشرين .. فلما توفى بعدسنوات تزوج من هذه الفتاة عضو فى جماعة كبار العلماء .. وعمره فى الخامسة والثمانين .

ــ ولكن هذا رجل ..

ــ وهذه امرأة ..

ــ ألا تجد فرقا بين الاثنين ؟

ــ كلا . . ماهو الفرق بين يدك اليمنى ويدك اليسرى ؟ ان للمرأة مثل ما للرجل من خصائص ومميزات .. فلماذا تحاول ان تفرق بينهما ؟ هذا هو الاسلام فرض على الناس جميعا واجبات يؤدونها . فهل أعفى المرأة من شيء منها ؟ ..

ــ كلا ولكنه جعل شهادتها نصف شهادة الرجل . .

ــ يخيل لى ولست اجزم بهذا ان الله قد خص المرأة بقسط وافر من الرحمة والحنان لتحتفظ بسلامة النوع فلم يشأ سبحانه وتعالى أن يضيع حقا فى خصومة بسبب هذه الرحمة وذلك الحنان ..

ــ دعنا من هذا .. جاءتنى بالامس معلمة تشكو من انها تزوجت من شاب متعطل .

— كان عليه أن تعرف ذلك قبل أن تتزوج منه .

— لقد قلت لها ذلك .. فلما انفقت عليه اخر قرش ادخرته في صندوق التوفير تركها وتزوج من معلمة اخـــرى .

— وماذا عن هـــذه المعلمـــة الاخرى ؟

— لقد تزوج منها ثم التهم ثروتها وتركها الى معلمة أخرى .

— هـــذه مشـــكلة ..

— الم أقل لك ذلك ؟ اننى لاادرى ماذا عسى ان نصنع ؟

— ان هذا الذى تشكو منه يقع كل يوم فى نطاق اخر غير نطاق المعلمات .. هـذه هى الطبيعة البشرية فى كل وقت وفى كل مكان .. خداع .. ولا شىء غير الخداع ، حسب المعلمة ما تلقاه فى حياتها الزوجية من تعب ومشـــقة...

— ولمـــاذا تتزوج ؟..

— لأنها تريد أن تحفظ عليها سمعتها وكرامتها ، ولأن الزواج هو غاية كل انســـان ولو كـــانت معلمـــة .

— وماهى المشـــاق التى تتعرض لها مع الزواج ؟ ..

— آه .. قلت ماهى المشاق التى تتعرض لها مع الزواج .. ان عليها ان تقضى فى المدرسة اكثر من ثمانى ساعات فى اليـــوم .. فاذا عادت الى المنزل مجهدة مكـــدودة .. كان واجبـــا عليها .. ان تنظر فيما ينبغى ان يصلح طعاما لزوجهـــا . ولابنائها وعليهـــا ان تعد دروسها فى المســـاء وان تراعى شـــئون منزلها ..

— ولماذا لاتترك مهنة التعليـــم مادامت قد تزوجت ؟

— ان لهذا أسبابا كثيرة .. منها انها قد لاتطمئن الى دوام

حياتهـــا الزوجية .. ومنها ان تعين زوجها الفقير بمرتبهـــا .. ومنهـــا ....

ـ حسبك .. انت تدافع عنهن .. هؤلاء اللواتى سوف يحللن محلنا نحن الرجـــــال .

ـ ولم لا ؟ .. ان الرجل يستطيع أن يعيش من مهنة اخرى يرتزق منهـــا .. اما المرأة فانها احق بتعليم الاطفـال .

ـ انهن يجلبـــــن وراءهن الاراجيف .

ـ كلا .. فان المعلمات من خير طبقات الامة سمعة .

ـ ذلك لأن الـكثيرات منهن دميمات ..

ـ ولو ؟ فللدميمة جميع خصائص المرأة وغرائزها . ومعذلك فانهن يحتشمن لاتصالهن الدائم بابناء البيئة المصرية الثرثارة وما من شك ان ظروف حياتهن تختلف عن ظروف الكثيرات من نساء هـــذه الامة .

وظلوا يجادلون فى هذا ونحوه حتى انتصف المساء . ومشى عبد العظيم فى طرقات القاهرة وهو يضرب فيها على غير هـــدى وكان يسره ان يخطىء الطريق الى المنزل الذى حل ضيفا عليه . فان جو القاهرة فى آخريات الليل يغرى بالتجول فيه.. كل ماحوله ساكن هادىء لكن ليس ثمة أحد يسكن هذه الدور الصامتة .. وقد تمر به سيارة او يصطدم به سكران مخمور .

وجعل يحصى مصابيح الطرق كلما وصل الى واحد منهـــا . وعلى الأفاريز يرقد بعض الصبية العراة . والحراس يتثاءبون فاذا أحس الواحد منهم سلطان النوم استند الى جدار وراح يهوم ..

وسر عبد العظيم من هذا السكون الجميل وغمره شـــعور لذيذ بوحدته وانفراده ، ومضي يفكر فى شتى الموضوعات والمذكر

حديث المســاء عن المعلمات وثب فى ذهنه صورة زينات .

انه كان يدافع عنها ويثور من اجلها .. وهى التى جعلتــه يرضى ان يجىء الى القاهرة .. وامتلات عيناه بالدموع .. دموع لاترى ولا تسيل .. ولكنها اشد الما من هاتيك التى تسكب كانهــا دموع التماســيح ..

وغمرت موجات من الحزن العميق .. وجرد من خياله القوى تمثالا لزينات جعل يبتهل اليــه بهذه الضراعة .

اننى اشكر الله الذى خلق لى عينين انظر بهما اليك وحدك .. وأحمده على أن صاغ لى قلبا لا ينبض الا بحبك ..

اننى لا أذكر ماضيا أعتز به الا هاتيك الساعات التى أمضيتها فى قــربك ..

ولست أملك أن أحلم بالمستقبل الذى يجمع ما بينى وبينك ..

لا .. لســت احمق حتى ابتغى المستحيل فى ان يلتقى شملى وشـــملك ..

كان ينتقى كل كلمة من كلمات هذه الضراعة ويبدل فيهــا .. وبلغ به التهور الى حد أن جعل يترنم بما يقــول .. وكانت شقوته فى نأيه سبب اسعاده ولم يلبث – وهو مذهول – أن تردى فى حفرة وكادت تكسر ســـاقه .

على انه – ولاتدرى اذلك لخيره أم لشره – لم يعرف شــيئا مما وقع لزينات مع فتاها محسن .. ذلك الشاب الذى لايهنأ له نوم حتى يحصى على اصابعه خمسة عشر حادثا قذرا كان هــو بطلهــا الاول فى يومـــه ..

التــقى محســن بزينات فى طريقهما الى المنـــزل فحياها وقال لهـــا :

ـ اسمعى يازينات بلغنى أنك مازلت ماضية فى طـــريقك الخاطىء مع هذا المدرس الذى اســمه عبد العزيز .. او عبد العظيم ..

ـ أنا .. اعمل معروفا وجنبنى هذه الاقاويل .

ـ كيف ؟ ان الناس كلهم يتحدثون عن هذه العلاقة بينكما. اسمعى .. اذا كان الامر كذلك فانت تعرفين من انا ؟ وتعرفين من هـــو ؟ ..

وجعل يفتل شاربه ويضرب فخـذه بعصـا قصـيرة .. وكان يحاول أن يوحى اليها أنه غير عابىء بهذا المدرس الذى ينافسه فى غرامه وانه لم يشـأ ان يحدثها فى هذا الامر الا رحمة بها .

وقالت زينـــات :

ـ لا .. لاياسيد محسن ماذنبى انا اذا حاول انســان ان يتعرض لى فى طـــريقى ؟

ـ الذى بلغنى أنك تشجعينه على هذا التعرض ..

ـ انهم يكذبون أننى غـــريبة فى هذا البلد .. ومن الواجب على أن أحتفظ بسمعتى وكرامتى بين أهله .. فاذا حاول شـخص أن يشـــوه سمعتى ..

ـ من ذلك الذى يحاول ؟ هل تصـــدقيننى ؟

ـ كلا .. ماقصدتك .. ولكننى أكره ان أخوض فى هـــذا الموضوع حتى لايكثر الحديث فيــه ..

وكانت تكذب .. فليس احب الى نفسها من ان يرفـــض الناس الحديث عن معاملاتهم وحاجات بطونهم وان يخوضوا فـــى سيرتها بكل ما يملكون من هذر ولغـــو .

وقال لهـــا محســـــن :

ـ آلا تذكرين ذلك الوقح الذى أطلق لســـانه وراء سيرتك بكلمتين ؟.. لقد عاد الى بيته فى ذلك اليوم وراسه معصوب وعلى ظهره سطور بارزة من عصاى هذه .

وهز عصاه فى وجهها ليخفيها . وكانت تعرف انه لايتورع من شيء ولكنها كانت تعرف انه يستكمل اسباب الظهور وعلـــو المكانة بفضل صلتـــه بهـــا .

وعاد محســـــن يقـــول :

ـ من هو هذا المعلم الالزامى ؟ انه لايملك فى بلدته مســاحة من الارض يغرس فيها عودا من القصب .. اما أنا .. فـــانت تعـــرفين ..

وصمتت زينات فقد كانت تعـرف الحقيقة ولكنها تعـــرف كذلك ان محســـن متزوج من اثنتين وانه يبيع كل شهر قـــدرا من أرضه لينفق على ملذاته ..

وقال لهـــــامحســـن :

ـ ستعرفين بعد قليل ما عسى أن يحـــدث لهذا المعـلم الملعون .. ساجعله يكفر بروحه عن هذه الجريمة الـــى يرتكبها ..جريمة الاســــتهتار بمركزى ونفـــوذى .. !

اقتلني أنا

عاد عبد العظيم من القاهرة .. وهو أشد شوقا الى رؤية زينات .. انه كان يحصى الدقائق والساعات التى يتسنى له بعدها ان يراها .. وقد نسى كل شيء حوله وفى قرارة نفسه .. أى انه لم يكن يفكر حتى فى هذه الخواطر الملحة التى تمر به . وحاول جاهدا أن يتلهى عن التفكير فيها بالتطلع من نافذة القطار أو القراءة فى صحيفة .. فتلوح له المشاهد التى يراها وكأنها ضباب .. تبدو الصحيفة .. أمام عينيه وكأنها بيضاء ..

كان يفكر فيها وحدها ولا يدرى كيف سلبته رشده .. ومزقت قلبه ... انها تبتسم له وتضحك فى وجهه .. وقد تبقى يده فى يدها لحظة ولحظتين .. ولا ريب أنها عرفت ما يدور فى رأسه .. وما يختلج فى صدره من هوى وحب جارف

ولكنها كانت تذكى فى قلبه النار وتتركه ليطفئها وحده ان استطاع .. وكثيرا ما توصل الى معالجة الأمر بالفلسفة .. فيبحث ويدرس .. ويفكر فى كل ما وقع له منها . ويستخلص من هذه الابتسامة وتلك الضحكة وهذه الاشارة معان لا تحتملها .. فلما هدأت نفسه بدت له هذه الفلسفة ضربا من الهوس والخيال

والذى يكربه ويشغل باله .. أنه لم يكن يراها وحدها الا فى الطريق أما اذا ضمهما مجلس فلا بد ان يكون معهما ثالث أو رابع .. وعندئذ يصبح الجو ثقيلا مقبضا يزخر بالكآبة والوحشة والضجر .

ومرة واحدة صحت له معها خلوة لا ثالث معهما ... فجلسا صامتين يحدق فيها وهى تحنو عليه بين الحين والحين بنظرة فيها دلال واغراء .. وبعد قليل وجد نفسه يرشف من فمها رحيق النعيم القدسى ويضطرب كل شيء فيه .. ولا يعود يذكر شيئا كأن الزمن قد توقف وكأن الحياه قد انتهت .. وكانهما فى عالم علوى كله فتنة وسحر وجمال ..

وكانت لاتمانعه ولكنها تريد ان تشعره بانها لم تكن تريدذلك .. انها تود أن تستبقى حبه لتنعم بهذه النشوة التى تحسها المرأة حين تكرع من عصير كبريائها وأنانيتها ..

جرفته موجات من هذه الذكريات فلم يعد يدرك شيئا من حوله .. ولم يسمع صراخ طفلين على مقربة منه فى القطار وأمهما تحاول جاهدة ان تسكتهما بالحيلة طورا وبالضرب والتهديد طورا اخر .

وانتهى الى غايته من السفر .. وذهب الى زينات فلقيها وحدها وكأنما كانت تنتظر قدومه .. وحدثها عن مصر .. حديثا لا يخلو من السخف والتفاهة .. وسألته عن عمله فى الاتحاد العام ..

فقال لها :

— ان الناس جميعا يتشبثون بالفهم الخاطىء حين يعرضون لقضية المعلم الالزامى بالبحث والمناقشة .. وعيبنا أننا جئنا خلفاء لفقيه الكتاب .. وما من واحد يريد ان يفهم قضية المعلم الالزامى على حقيقتها سوى اولئك الذين وهبهم الاله جودة الفهم وسلامة الادراك ..

وقالت له زينت :

— ان قضيتنا بسيطة ومفهومة .. نحن نحفر باظافرنا ما

خلفت فى هذا البلد الاف السنين من جبال الفاقة والجهل والغباوة .. وليست مهمتنا ان نلوح بالعصى فى وجوه الاطفال الناعسين . ونلقنهم المعارف العامة .. ولكن مهمتنا الحقيقية ان ندفع عنهم شرور لبيئة الفقيرة الجاهلة .

وسر عبد العظيم من هذا التعبير وطرب له .. كانه هو الذى قاله . فقد كان يود ان تصبح زينات اسعد وآذكى واعظم امرأة فى العالم وقال لها :

ـ ولكنك ترين اننا نجد الصعوبات فى كل مكان .. القرويون الفقراء يحدقون علينا لاننا نسلبهم اولادهم .. والاغنياء منهم يحاربوننا لاننا نريد أن نعلم القروى مالايحب الغنى أن يعلم . هذا على بهجت باشا لايطيق أن يرى أحدا منا لانه يحس فى دخيلة نفسه اننا نكشف بالتعليم عن خطاياه ورذائله وما من مرة تحدث فيها عن التعليم الالزامى الا ارسل زفراته المحرقة زاعما اننا نعمد الى اضاعة القرآن الكريم من صدور لتلاميذ ..

وانتهيا من هذا الحديث الى الغزل وقال :

ـ هل لى أن أطمع فى جلسة هادئة معك وحدك ..؟

وكان يتوقع ان يجىء من يعكر عليهما صفو الحديث ..

وقالت له :

ـ اهذا كل ماتريده منى ؟ جلسة هادئة .. ؟ كنت احسب انك تريد ماهو اسمى من ذلك .. ؟

واصطنعت الغضب لتزيد من وقدة حبه اشتعالا .. وقال لها وهو لايدرى ما يقول :

ـ ان حبى لك اعظم من ان اوضحه فى كلمات .. اننى اجن حين اراك .. واجن حين تغيبين عنى .. وهذا الثقيل البارد محسن ..

– ماله .. ؟

– انه يلاحقك وانت تخصينه بمودتك كلها .. انك تهمسين اليه وتوجهين القول نحوه فى ود كانما قد سحرك .

– وهل تظننى احبه واطيقه ؟! اننى آجاريه .. وعندماجاءت والدتى الى هنا لزيارتى قلت لها ذلك وهى تعلم اننى ابغضه ولكن انتظر .. ماهذه الفتاة سناء التى تلاحقك ؟

– اتركى هذه الفتاة وشأنها .. انها قريبتى وقد كنت أتوهم اننى احبها ولكنى عرفت اننى واهم فى ذلك الحب .. دعينانتحدث عنك وحدك .. لا ادرك لماذا رايتك ؟ ولماذا احببتك ؟.. هل تصدقين ؟ اننى اتمنى ان لا اراك ابدا ولكنى لا استطيع .

– اصبركن صابرا مثلى ..

– الى متى ؟.. الى ان يختطفك محسن منى ؟ لكم وددتان اخنقه ، واخنقك واخنق نفسى ..

– اقتلنى انا .. فما قيمة الحياة عندى .. انها موكب لااطيق الفرجة عليه .

وكان يعرف انها فى كل ماقالته تخدعه وتخدع محسن وتخدع نفسها فلا هى تحبه ولا تحب محسن ولكنها تحب نفسها . ان ذكاءها الفطرى منحها خيالا خصبا وانانية واضحة ضخمة .. وكلما وقفت امام المرآة عرفت اى جمال خصها الله به ؟ فهى تحلم بالهناءة وتطمع فى المتع الغالية .. ولكنها ترى نفسها مقيدة بهذه الوظيفة التافهة فتثور على نفسها وعلى الناس

وتركها الى حيث يلتقى باخوانه وكان لايريد ان يتركها لحظة .. وهذا عجيب اذ انه كان فى كل دقيقة يتمنى صادقا الا يقع بصره عليها ولكنه ما ان يراها .. ما ان تمد يدها اليه حتى يدرك انه اضحى آسير هذه اليد الى الابد .

وتوقع اليوم الذى يتركها فيه .. انه يحاول أن ينقذ نفسه من شباكها كما يحاول طفل ان يتخلص من اخطبوط وقع فريسة له .. وتمنى ان يجيء ذلك اليوم الذى يمر فيه فلا يحييها كأنه ما رآها قط .. وقال لنفسه :

ـ ليس هذا اليوم بعيدا جدا .. انها تذلنى وتسخر منى.. ساقتلها واقتل نفسى . السم او المسدس ؟ انهما سيان .. فهذه هى الطريقة الوحيدة للخلاص من حبها الاليم .

وعاد يحلم .. فرآها بعين الخيال جثة هامدة بين يديه وراسها يميل الى الجانب الايمن وقد اشرقت على فمها ابتسامتها الخالدة .. فصرخ من اعماق قلبه :

ـ لا .. لااريد ان تموت .. يجب ان تعيش مائة عام ... ويجب أن يبقى لها جمالها ونضارتها الى الأبد .

وقال له اخوانه بعد ان عانقوه :

ـ ماذا صنعت فى مصر . ؟

ـ كل خير ..

ـ قل لنا شيئا ..

ـ ماذا أقول ..؟ ان اخوانكم هنا يحرقون دماءهم فى سبيل الوصول بقضيتكم الى غايتها .. ولكن الامر لايخلو من عراقيل .. ولا يخلو كذلك من عقبات .

ـ وما هى هذه العراقيل والعقبات ؟

انها كثيرة .. فالمسائل تأخذ فى رءوس الرجال حيزا ضيقا لاتتعداه انهم مشغولون بانفسهم عن كل ما هنالك .. يقول الوزير مثلا .. المعلم الالزامى .. آه قد اعطي حقه وكفى

... ثم يكلف سكرتيره ان يفتش لصديقته عن زجاجة العطـــر التي وصـــلت من باريس .

ــ وما هـــو الحــل ؟

ــ الرأى عندى ان ننهض بانفسنا قبل ان نطاب من غــيرنا أن يعاوننا عـلى النهوض .. لقـــد شهدت مؤتمرا للتعليم الالزامى فى القاهرة . وجاء اليه جميع اولئك الرجال الذين يحبون انيعرف الناس عنهم انهم يتفانون فى سبيل الاصلاح وكانوا تافهين . لقد صدع احدهم رءوسنا باحصاءات كثيرة معقدة عن التعليم الالزامى فى انجترا وفى الصين وفى جنوبى آفريقيا ونسى أن يتحدث عـــن التعليم الالزامى فى مصر . والقى واحد اخر قصيدة فى عـــلاج مشكلة التعليم الالزامى . أما الثالث فكان موظفا كبيرا لذلك لــم يستطع ان يقرا الموضوع الذى اعده له سكرتيره الا بصعوبة .. وكان يبحث عن العـــلاج فلا يجـــده ..

ــ وماذا قلت انت ؟ نحن قرانا عن هذا المؤتمر بضعة سطور فى احدى الصحف فماذا قلت ؟

ــ لم اكن اريد ان اقول شيئا لولا ان اخوانى الحوا على كثيرا فطاوعتهم وقد قلت لهم ان رسالة التعليم الالزامى فى مصر ــ وفى القرى على الاخص ــ فالابوان لايريدان لطفلهما التعليـــم لانهما فقيران ولانهما جاهلان .. وقلت لهم . ان ملايين الجنيهات التى أنفقت على التعليم الالزامى لم يأخذها المعلم الالزامى .. ولكن ابتلعها النظام الخاطىء الذى يضعه اليوم وزير ثم يجىء وزيـــر اخر يعدل فيه او ينقضـــــه من اساســه ..

وقلت لهـــم ان النظرة الخاطئة التى يوجهها المجتمع الـــى المعلم الالزامى هى التى تقلقه وتثير فى نفسه مرارة الاحســـاس بتفاهة العمل العظيم الذى يقوم به وقلت لهـــم .

وقال احـــد الزملاء مقاطعـــا :

ــ هذا عظيم .. عظيم جدا .. انهم لايفهموننا . ولذا نراهم يحاربوننا فى البرلمان .. حين تثار قضية المعلم نجـد الكثيرين من الاعضاء يظهرون امتعاضهم لان بعضهم مايزال يشعر باثر الصدمة التى لحقته من مناوأة المعلم الالزامى له فى الانتخابات .. وبعضهم لا يريد أن يرى فى قريته هذا النور الذى تضيئه جهودنا ..

وقال عبد العظيـــــم :

ــ هذا صحيح .. وان كنت اعتقد ان علاج مشكلتنا لن يجىء من الخارج .. ولكنه يجىء من انفسنا .. فعلينا أن نجتهد فى رفع مستوانا حتى نستطيع الوقوف أمام هذه الصعوبات التى تلقاهـــا فى كـــل مـــكان .

وقال احـــــــدهم :

ــ انك تتحـدث عن اشياء عامة . كيف نرفع مستوانا ؟ !

ــ تلك مسألة تستطيع أن تدركها اذا عرفت ان الناس مـــا يزالون يتخيلون المعـــلم الالزامى وكانه فقيه الكتـــاب .

وذكر فى هذه اللحظة حديثه مع زينات .. وساله ناظـــر المدرســــــــة :

ــ الم تلق أحدا من اصـــدقائى الوجهاء ؟

ــ وجدتهم كلهم .. انهم يسألون عنك . ويهدونك أطيـــب التحيـــــات ..

عودة الحاج

دعى الاساتذة المدرسون الى فرح احد الاثرياء فى قرية بعيدة .. كان قد عاد من حج بيت الله وطاف بالاماكن المقدسة ووضع يده على قبر الرسول .

ولما وصل الى قريته وجد ان منزله قد طلى بالجير الابيض ورسموا له كل مايشتهى المرء ان يرى من ضروب الزينة والزخرفة .. أسد يمسك بيده اليمنى سيفا .. وزهورا وطيورا .. وجمل يحمل هودجا . وشاء الفنان القروى ان يضيف الى هذه الرسوم الساذجة رسم امرأة تخيل جمالها وهى تحمل فوق راسها جرة وتمسك بيدها وليدا صغيرا ..

ولم يرض أهل القرية عن كل هذه الرسوم كما رضوا عن رسم امرأة فى قريتهم تشبهها اسمها – ست الكل – لها ذلك الفم الذى يغرى بالقبل والأنف الأفتى والعينان اللتان تسكران .. وقيل ان أهل حاج بيت الله الحرام رفضوا ان يصغوا الى صوت العقل فاقسموا ان يجعلوا الفرح بمقدم عميدهم آية الآيات فى البذخ والاسراف .

وقيل كذلك ان الحاج المحترم شتم اهله ونهرهم ولكنهم غلبوه على امره حين اصروا على موقف العناد والمكابرة .. وعرف الناس انهم اتفقوا مع (الغوازى) لاحياء ثلاث ليالى الفرح .. فتقبلوا هذا التناقض الفذ كما يتقبلون فى حياتهم المتناقضات

وذكروا من الغوازى اسم « ناعسة » التى غزت بجمالها

قلوب اهل الاقليم .. وكان الشبان والكهول والشيوخ يتقربون اليها . باموالهم واحسابهم كما كان اجدادهم يفعلون مع تاييس .

وذكروا كذلك « وداد » تلك التى خلدها شاعرهم العبقرى فى مقطوعته الغنائية ويغنيها أهل مصر جميعا ..

ولا اقول للزين سلامات   على حسب وداد قلبى يابوى

وكانت وداد هى ابنة اخ ناعسة وهو رجل يحاول جهده أن يبدو محترما لأنه يملك مالا كثيرا ويملك أرضا وكان يركب الجواد المطهم وما ان يمر بالناس حتى يثبوا بالتحية واقفين وهم غاضبون وللقرويين فلسفة خاصة بهم .. فهم يقفون تحية للسرج لا للجواد ولا للراكب عليه ..

اما ناعسة هذه فقد خربت بيوتا كثيرة وافقرت عددا لا يحصى من الناس ثم اعلنت توبتها وحجت الى بيت الله الحرام .. ولما عادت اغلقت عليها بابها وانصرفت الى عبادة الله .

صفت المقاعد الخشبية أمام منزل الحاج .. وكذلك الأسرة التى صنعت بغباوة من جريد النخل .. وقد جاءوا بالمقاعد الخشبية من منازل أهل القرية .. فما ينبغى أن يضن قروى بمعاونة أخيه فى مثل هذه المناسبة . وجاءت الغوازى ومعهن حاملو آلات الطرب فبرزت نسوة القرية من أكواخها ينظرن ويستهزئن بهؤلاء اللواتى يتركن ازواجهن من اجلهن .

وأعدت لهؤلاء الراقصات فى داخل المنزل حجرة واسعة يجلسن فيها ووقف على بابها شاب لا يأذن لأحد بالدخول .. الا أن يكون هو الداخل ..

وسرت فى المنزل حركة نشاط لا مثيل لها فى أعواد الطعام الذى سيقدم الى مئات المدعوين .. ومن بينهم كثيرون جاءوا من قرى بعيدة على دوابهم ليصافحوا اليد التى استلمت الحجر الأسود .. ولينعموا بالنظر الى أجساد الراقصات الفاتنات .

اما شباب القرية فقد شربوا تلك الليلة من النبيذ مافيه الكفاية وجعلوا يطقون بنادقهم فى كل مكان ووقع اكثر من عشرين مشاجرة لاسباب اشد تفاهة من عقول اولئك الذين اثاروها وارتكبت على حساب حاج بيت الله موبقات شنيعة وطلقت أكثر من زوجة. ووجد اللصوص مجالا واسعا لاختطاف ماوصلت اليه ايديهم من ثمار الحقول ..

وكان حاج بيت الله يثب الى الصلاة ومعه ضيوفه كلماحان وقتها . فاذا انتهى من اداء الفريضة المكتوبة راح يسأل عن الراقصات ؟

— اهن فى حاجة الى شىء يقوم به ؟

ورأى ناظر المدرسة أنه ليس يتفق ومكانته القول بصداقته لأية واحدة من هؤلاء الراقصات فاكتفى بأن يقول للحاج .. انه يذكر انه اجتمع حين كان فى القاهرة — باميرالحج فى منزل احد اصدقائه الاثرياء .

وقال عبد العظيم :

— وددت أن اعرف كيف يستطيع القروى عندنا ان يجمع فى قلبه كل هذا التنافر وأن يجد لكل تناقض مبررا ..

— ماذا تعنى ؟

— هذا رجل حج بيت الله وهو يصلى ويصوم .. وقيل انه يخرج من الزكاة من أمواله لا ادرى كيف يطاوعه عقله على ان يحتفل بتقواه وورعه بهذا الاسلوب المنكر !

— ولكنها العادة .. اكتسحته ..

— ومن أين جاءت هذه العادة ..؟ انني اعلم ان القروى يفكر

وهو فى المسجد .. وهو يصلى فى ارتكاب جريمة قتل برىء .. فالصـلاة شىء وجريمة القتل شىء اخـر .

ثم تابع حديثه قائـلا :

ـ انهم مساكين .. حاق بهم الظلم والفقر وسخافة العقـل والتدبير فالقـروى لا يكاد يميز بين الصواب والخطـأ .. وهـو يندفع الى الشر كما يندفع الى الخير .. وهو فى حالتيه يلائم بين مزاجه الحاد المتقد وبين ضرورات الحيـاة .

وقال ناظر المدرسـة بعد ان صافح خمسـة وثلاثين قادما :

ـ سبب هذا .. الجهل الذى نحاربه ياأستاذ عبد العظيم وجعل يصفع يده اليمنى بباطن يده اليسرى ويفـرك أذنه ويعض باسـنانه على سبابتـه .

وقال عبـد العظيـم :

ـ قد يكون لامر كذلك .. ولكن الجهل وحده لايكفى فـى خلق هذه المتناقضات كلهـا .. ان القـروى .

والتفت عبدالعظيم الى معلم الزامى كان فى مواجهته وقـد جاء من بلدة بعيدة .. يتولى تفسير آية كريمة هى قوله تعـالى

« قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون »

وقال الشـاب المـدرس :

ـ ان الله سبحانه وتعالى حين خلق الدنيا كان يعلم كل كبـيرة وصغيرة .. فالعلم سابق على الجهل لأن العلم هو صفـة الله ونحن نهتدى بصفات الله ..

وانبرى له أزهرى قديم يبغض المعلمين الالزاميين لانه يراهم دونه فى تحصيل العلوم فقاطعه قائلا :

– ما هذا الخلط الذى تقوله .. الآية واضحة .. أنهـا للتفريق بين المتعلم والجاهل . ولان حاج بيت الله كان أميا فقد ساءه هذا التعبير . بل أنه أساء الى أكثر الحاضرين فتجاهلوا الشيخ الازهرى وأصغوا الى المعلم الالزامى فى كثـير من الود والاحتـــرام ..

وأصغى اليه عبد العظيم مزهوا .. وقد سره أن أحـد زملائه يأتى بمثل هذا القول الجميل لكن الشيخ الازهرى جعل يشاغب ويصرخ ويحتـــج ..

وأحب أن ينال من حاج بيت الله فقال :

– تعرضون لهذه الشئون الدينية وعندكم راقصات ؟

وقال عبد العظيم مبتسما :

– وأنت يا ولى الله .. لمـاذا جئت الى الراقصات ؟ ..

وفى المساء انتشرت المصابيح فى المكان .. وجعل النســـوة يزغردن والاطفال يتواثبون فرحين مبتهجين .

وجاءت «ناعسة» وجعلت ترقص رقصا لامثيل له فى الخلاعة والتبذل .. وكانت تقف أمام أحد المدعوين لتغريه بهذه الحركات الماجنة على أن يخرج من عقله .. وأحس كل مدعو أنه موضـــع الود والاصطفاء من ناعسة .. ألم تلتفت اليه وتبتسم فى وجهه .. ولما أثارت الرغبات المكبوتة فى صدور الجالسين وجعلتهـــم يركضون وراءها بقلوبهم وأعينهم التفتت الى فنها فأبدعت وأجادت ابداعا واجادة لا يمكن لأية راقصة قاهرية أن تصل اليهما ..

لقد حملت فوق رأسها مقعـــدا وراحت ترقص وتفتن .. وأمسكت بساقيها جرة كبيرة ومضت تبرز من أيات فنها مايشده ويطرب .. وكان الرجال يصرخون اعجابا .. ومن خلفهم أولئك

الذين لم توجه اليهم الدعوة يضحكون ويعصف الاشتهاء بعقولهم وأفئدتهم فيشتجرون فيما بينهم تزاحما على شهود مالم يروه .

وقال ناظر المدرسة :

ــ ما هذا ؟ انها لفضيحة .. ولولا اننى مدعو من صديقى الحاج عبد ربه عبد الستار لغادرت المكان ..

وقال عبــد العظيم :

ــ ما دمت قد جئت فاحتمل

وسمع أن رصاصة طائشة أصابت مقتلا من عجوز كانت تجلس فوق سطح كوخها لتمتع النفس برؤية هذا الاحتفال ..

وخيم الصمت لحظات على المدعوين وسكتت الراقصات .. ولكنهم حين عرفوا أن العجوز فقيرة وليست من أسرة لها شــأن فى القرية استأنفوا الهرج والمرج وألحوا على الراقصات فى أن يعدن .

وانتهت الحفلة وآوت الراقصات الى حجرتهن ودخل عليهن حاج بيت الله .. يسلم عليهن .. وكان قد أقنع ضميره بأن أهله هم الذين ألحوا عليــه فى ذلك ..

ونهضن لاســتقباله .. ولثمن راحتــه ثم ســألنه الدعاء بالتوبة من معصية الله ووقف حاج بيت الله مشدوها مضطربا وفى صدره تنبح الرغبــة الطاغيــة ..

وقالت احــداهن :

ــ ألم تحضر معك ماء زمزم ؟ .. اننى اريد أن أشرب جرعة منه تشــفينى من وجع فى الظهر ينتابنى فى كل مســاء ..

وقالت ناعســة :

ـ هل حججت بيت الله .. كم تمنيت أن يتوب الله على فأذهب الى هنـــاك وأكفر عن ذنوبى ..

وقال الحـــاج وهـو يهم بالبكاء :

ـ لا تقنطى من رحمة الله .. ان الله غفور رحيم ..

وأقترب منها يواسيها ويعدها بالتوبة .. كأنما جاء بهـــا فى حقائبـــه من الحجـــاز ..

ولثم حاج بيت الله .. جبين البغى .. ثم زايل المكان ..

قرية الظلم

حاول عبد العظيم أن يصرف نفسه قليلا عن حب زينات وان يمضى وراء غرض ضخم يرصد له مشاعره كلها وأحاسيسه كلها وجهوده كلها .. ولم يجد أمامه سوى أن يمس بالابرة النافذة قلوب هؤلاء القرويين التعساء الذين يرسفون فى أغلال الذل والمهانة تحت سياط الاقطاعى الوغد على بهجت باشا ..

كان يعرف ـ كما يعرف أصابع يده ـ أنهم سيرفضون الاستماع الى نصائحه وسيبغضونه كما لم يبغضوا أحد من قبل فانه يريد أن يزيح عن قلوبهم ما تراكم عليها من خوف وفزع .. وينظف عقولهم من كل ماخامرها من جهل وشك واضطراب يريد أن يجعل منهم آدميين يدركون حقوقهم وواجباتهم .. وهى محاولة ليست مستحيلة .. ولكن نجاحه يعتبر معجزة ..

كان لايجد فى طريقه سوى الاشواك والعقبات من أولئك القرويين الذى يحاول جاهدا أن يبصرهم بمواقع أقدامهم وأن يسلك بهم سبيل التمرد على ما يحيق بهم من بطش وتنكيل .

وكان عبد العظيم يضيق ذرعا بغباوة هؤلاء الناس وحاول أن يدع مصائبهم تتهاوى تحت قدميه لولا أن قذفت المصادفة المحضة فى طريقه بعوضين عبد المتجلى وهو ذلك القروى المسكين الذى فقد نجل صاحب السعادة ولده لمجرد أن يجرب مسدسا فى يده .. وكان عوضين قد تخلى عن حقله وعن جاموسته وعن طعامه وشرابه وأصبح عمله الدائم البكاء والشكوى الى من يعرف ومن لا يعرف ..

لم يكن عوضين يخشي أن يموت . فا نولده وحبيبه قد مات .. وهو لم يكن يعتقد أن له حياة أخرى غير هذه الحيـــاة التي اختطفتها رصاصة مسدس ممدوح نجل صاحب الســعادة وهو لا يدرى — على التحقيق — أحي هو بين الاحياء أم ميت مع المـــوتى ؟ ..

وقال له عبدالعظيم :

— ما هى الحكاية ياشيخ عوضـــين ؟

وقال الرجل .. ولكن بعد أن نصف حاله حين قال :

كان يرتدى أسمالا ويعيش حافى القدمين وقد نما شـــعر لحيته ورأسه . وأحاله الجوع الى هيكل عظمى وأطل جـــلده الاسمر من خروق ثوبه .. ولم يعد يحفل بأحد فى الوجود فلو جاءه صاحب السعادة نفسه لاستوى عنده وحارس البئر المسماة بالاربعين .. وكان يظل ساكنا وادعا هادئا مدى دقيقة أو دقيقتين ثم يهب صارخا ويضحك حتى يكاد ينخلع قلبه من شدة الضحك .. ثم تنهمر دموعه ويظل يبكى ويبكى ..

وقال عوضـــين لعبد العظيـــم :

— أيه الحكاية ياحضرة ؟ .. حكايتى ها .. ها .. ها .. ثم جعل يملأ يديه من التراب ويأكل وتطلع الى وجه عبـــد العظ فى قحـــة وهدوء ثم قال له :

— تفضـــل معنـــا .. ..

وأشار الى التراب ..

وقال الرجل وقد اختلطت فى وجهه معالم الضحك والحزن:

— حكايتى ؟.. ألا تعرفها يا حضرة ..؟ ألست من هـــذه القـــرية ؟ ..

وقال عبـــد العظيـــم متخابثـــا :

ـ لا .. لقد جئت الى هذه القرية منذ أيام قليلة ..

وتجاهل الرجل هـــذا الجواب الواضح وقال :

ـ هل تريد أن تضحك معى ؟ كلهم يضحكون .. عندما أقول لهم أن ولد الباشا قتل ولدى يضحكون ..

وأحس بالغضب الحقيقى للاهانة البالغة التى يقترفونهـــا لذكرى ولده القتيل .. وتجلت عليه مظاهر القسوة والجمـوح حتى خشى عبد العظيم أن يقـــدم على عمل ضـــار .. ولكنه عاد يضـــحك قائلا :

ـ كلهم يضحكون .. كل جريمة ارتكبت فى هذه القـرية كانوا يقابلون أنباءها بالضحك .. والاستغراق فيه .. وهل هى حكايتى وحدى ؟ انها حكاية كل رجل فى هذه القرية قتل ولده واغتصب عرض ابنته .. أو زوجتـــه .. والناس يعرفون القاتل .. يعرفون لص الاعراض .. ولكنهم يعرفون أن الحكام جميعا يقبلون يد القـــاتل ويد لص الأعـــراض .. لذلك هم يضحكون من كل جريمة تقع بدلا من أن يبـــكوا منها .. فماذا يفيـد البـكاء يا ولدى ؟ ..

وأحس راحة فى قلبه جعلته يستقر فى جلسته .. وخيل الى عبد العظيم وهو يحملق فى وجهه أنه قد عاد اليه رشده ..

وامتد بين الرجلين حبل من الصمت الموحش البغيض .وكان كلاهما يحاول أن يقطعه ولكنه لايستطيع فقـــد يكون الـــكلام موجعـــا أليمـــا ..

وهذه هى المأساة البشعة أمامك تتمثل لا فى ممثل عبقرى يجيد اداء دوره بل في صاحب الدور نفسه يقوم به على مسرح

الحياة .. ولا يبغى من الناس ان يصفقوا له ولا أن يدفعوا أجر مشاهداته ..

وقال عوضين :

— هل تعرف ماذا حدث أمس ؟ كان الباشا يمر بأحد الحقول وقد طمخ ثيابه بالعطور النفيسة . فرأى جاموسة أعجبته ولما سأل عن صاحبها قيل له انه عبد الوهاب الدهراوى. فقال ادفعوا له فيها خمسة جنيهات .. ان ذلك لا يليق أن يكون ثمن جلدها .. على أنهم أخذوها منه فصرخ الرجل وقال هذا ظلم .. ..

وسمع الباشا ما قال فأشار الى أحد تابعيه أن يطلق عليه الرصاص وقد فعل .. وقال العمدة أن الرجل كان يعبث ببندقية وجدها فى الحقل فانطلقت فيه فمات ..

وقال الطبيب بعد أن فحص الجثة :

— هذا معقول ..

— أتدرى ما هذا المعقول ؟ ان الرصاصة اخترقت جسد المسكين من جهة ظهره .. فكيف يعبث بها ؟ ..

وقال عبد العظيم :

— لقد سمعت عن مصرع هذا الرجل .. ولكن ناظر المدرسة أكد لى أن هذا الرجل قتل نفسه بنفسه حين عرف أن زوجته تخونه .. ! ..

وقال عوضين :

— اسمع أيها الاستاذ .. لست قرويا جاهلا .. ولكنى تعلمت فى الازهر وناظر المدرسة لا يعبد الله كما يعبد الارض التى يخطر عليها الباشا .. وكيف تصدق هذه الحكاية والرجل غير متزوج ؟ ؟ ..

دولة الهانم

كان من عادة صاحب السعادة على بهجت باشا أن يدعو ناظر المدرسة الالزامية ومدرسيها الى مأدبة عشاء .. وكانت صاحبة السعادة زوجته تصر على أن تشهد هذه المأدبة رغم ما يسببه وجودها من حرج وضيق .. ولها من وراء ذلك أكثر من غرض .. فهؤلاء الشباب القرويون خليقون أن يوجد بينهم ذو وسامة وفتوة .. وكلما أقيمت هذه المأدبة كان عمل صاحب السعادة مقصوراً على ملاحقة نظرات زوجته من هذا الوجه الى ذلك .. وكان وجودها فى المأدبة يشعر المدعوين والحواشى والذيول بأن كلمتها لاترد ..

وامتازت المأدبة فى هذا العام بأن يشهدها الاستاذ عبدالعظيم الشلقامى وكان قد ظل طويلا يحاور نفسه ويداورها .. أيذهب أم لا يذهب ؟ وقال ناظر المدرسة وهو يحاول أن لايبتسم خشية أن يؤخذ بجريمة الاستهزاء ..

ــ سترى الهانم الفضلى .. سيدة من أكرم السيدات ثقافة وطهراً ..

وتوافدوا على القصر فى أجمل ثيابهم .. وجعل ناظرالمدرسة يحيى الخدم ويتلطف معهم . وجازف فألقى على أسماعهم بضع نكات فضحك منها هو طويلا ..

ولما دخلوا الى حجرة الضيوف وقف صاحب السعادة فلثموا يده الا عبد العظيم فانه اكتفى بأن يهز هذه اليد فى شىء من الاحترام كما لو أنه يصافح مفتش التعليم ..

وأحس الباشا من جراء هذا الحادث التافه أن جـدار القصر قد تهـدم فوقه .. فان جميع الناس يلثمون يده .. ومدير المديرية ينحنى عليها .. فكيف يجيىء هذا الوغد فيفسد عليه تقلـيده المحترم .. وتمثل فى ذهنـه ما عسى أن يجول فى خواطر هؤلاء المدرسين ؟ .. وماذا يقولون للقرويين .. وأوشك أن يطرد هذا الضيف السمج ولـكنه تمالك رشده وقدم لضيوفه ابتسامته المغتصبة .. وجرى الحديث حول صحة صاحب السعادة وعافيته .. وتفضل حفظه الله فاشتكى من خمسة أمراض تلاحقه أهونهـا مرض السكر وضغط الدم .. وتصلب الشرايين .. وهو يبغى من وراء ذلك أن يقص عليهم حكاية سفره الى أوربا فى كل عام وحيرة الاطباء العباقرة فى علاجه ..

ثم انتقلوا بالحديث الى الصراع الدولى وانقسام الدنيـا الى معسكرين شرق وغرب ..

وخاضوا بعد ذلك فى أحاديث شتى .. وكانوا جميعـا يصغون لعبد العظيم وهو يفيض بأسلوب رائع ونبرات قوية ذات رنين .. حتى صاحب السعادة الجاهل.. جلس مشدوها لا يكاد يعرف ما يقول .. قد اختلطت فى صدره نوازع الشر وبواعث الخير فهو يضيق بهذا الرجل الذى لايسكت .. والذى تحب أنت جليسه من جماع قلبك ألا يسكت وراح يفكر فيما عسى أن تصنع هذه الاحاديث المعسولة فى نفوس القرويين ستجعل منهم دون ريب ثوارا .. على أنه من جهـة أخرى يجب أن يصـغى اليه وأن يستمتع بهذا الجدول العذب من المـاء الصافى .. وقـد وجده فى راحة بعد رحلة قاتلة فى الصحراء ..

ونهضوا الى المائدة .. وجعل كل مدعو يسوى أطـراف ثيابه ويفتل شاربه ويمسح بأصابعه على الغضون التى فى وجهه فان سيدة القصر ستشاركهم طعامهم .. وأحس كل واحد منهم

رغبة قوية خفية فى أن يروق فى عينيها .. حتى عبد العظيم ظل يدرب شفتيـــه على الابتســـــام ..

وكانت نعمات هانم تجلس الى جوار صاحب الســـعادة فيبـــدو بالنسبة اليهـــا كما لو أن قردا جلس الى جوار احـــدى ممثلات هوليود الحسناوات على أنه بذل جهده فى اخفاء تفاهته .. وحاول بأقصى ما يملك أن يسبغ على نفسه مظهرا لائقا .. فكان يدنو من زوجته ويهمس فى أذنها ويضحك .. كأنه يريد أن يؤكد لمدعويه أنها ما تزال زوجتـــه ..

ولم تظهر نعمات هانم أى اهتمام أو عناية بعبد العظيم .. وكانت قد ســـمعت عنه وراق لها أن تضمه الى الشـــخوص العديدة فى متحف عشاقها المزدحم .. وتلك خدعة بدأت بهـــا حـــواء وحذقتهـــا عنها بناتهـــا ..

ونظر اليها عبد العظيم فارتد اليه طرفه وهو حسير .. وذلك أنه رأى على بشرتها طبقة مصنوعة من الاصبـــاغ والوان والدهون والطيـــوب ..

وكان يكره فى الجمال كل ماهو مصنوع .. وسرى فى ذهنه بأنه لو أزيحت هذه الطبقة لتكشف لنا وجههـــا عن مزيج من الدمامة والقبح .. وجعل يطرد هذه الصورة البشعة من مخيلتـــه طـــوال جلوسه على المائدة .. ولـــكنه لم ينجح ..

وكان كل مدعو يهيىء نفسه لشرف الحظوة منها بابتســـامة .. وأن يمر وجهه بهواجس قلبها فلعلها أن تصطفيه .. على أنهـــا كانت موزعة القلب بين كبريائها وبين افتتانها بالعمـــلاق المدعو عبـــد العظيم ..

وكان صاحب السعادة يحس أن هناك شيئا يجرى تحت سمعه وبصره ولكنه لايستطيع أن يقبض على هذا الشىء بأصابعه

فجعل يضحك دون أن يكون ثمة مبرر للضحك وراح يلتفت عن يمينه وعن شماله عسى أن يهتدى الى أثر من اثار الجريمة التى يقترفها هؤلاء الصعاليك وهم فى حضرته ..

وافترقوا بعد تناول الطعام مباشرة وكان كل واحـــد منهم يحس أنه ضبط متلبسا بجريمة ارتكبها..وعندما هم عبدالعظيم بأن ينام تراءت امام عينيه صورة فتاة سمراء ليست بالغـــة حد الجمال الاسمى .. ولكنها كانت تجمع كل فتنة ظفرت بها امرأة فى هذا الوجود ..

جثة بلا رأس

أحس صاحب السعادة على بهجت باشا أن بركان الغضب يثور فى صدره على هذا المدرس الذى اسمه عبد العظيم الشلقامى وكان من طبيعته أن يلتزم جانب الحذر فى انزال عقوبات بهؤلاء المعلمين فرأى أن يستدعى اليه «محسن» الشرير الذى ينافس عبد العظيم فى حب زينات .. وكان قد عرف أمر هذه المنافسة من عيونه الكثيرة التى ترصد له كل حركة تجرى فى هذه المنطقة.

واتفقا على وسيلة يقتنصان بها هذا المدرس الغر ويوقعانه فى حبائلها فلا يستطيع منها الفكاك ..

وفى ذات صباح فوجىء أهل القرية (قرية الشيخ سند) بوقوت جريمة مروعة فان أحد الاهلين كان يمشى فى طريقه الى حقله فرأى جثة رجل ملقاة على الارض فصرخ وذهب من فوره الى العمدة ..

وجاء الخفراء والمشايخ والناس يرون هذا الذى طاب له أن يقتل فى تلك البقعة وشد ما آلمهم حين رأوا جثة الرجل بغير رأس .

كان الدم قد سال حتى أغرق جوانب المكان واختلط بالتراب .. وعرف أحد الواقفين القتيل من ملابسه فقال :

ـ هذا محمد ابو حسين .

وكأنما أوتى هذا القاتل مجد النبوة فتابعه الجميع قائلين .

ـ صحيح .. هذا محمد ابو حسين ؟

وسبح كل واحد منهم فى نهر من الذكريات عن هذا التعس

الذى ترك القدر لغيره مهمة اخراجه من الدنيا على هذا النحو..
وجاء العمدة أخيرا يظهر الجد والاهتمام ويصرخ فى الخفـراء ـ لغير سبب ـ سوى أن يعلن سلطانه ..

وجعل الناس يتساءلون عمن يكون القاتل ؟ ..

ان القتيل رجل تافه لاخطر له ولا قيمة وكل ما يميزه عن غيره أن له زوجة شابة جميلة لها أكثر من عشيق .

وسرى النبأ الى القرية فغمرها الخوف والحـزن ممـا عسى أن يقع حين يجىء رجال الحكم وينطلق الجنود فى أنحـاء القرية يضربون ويبطشون بكل انسان..وكان أهل القرية يعرفون أن القتيل طالما أحس حاجته الى اظهار غيرته على عرضه ..فكان يضرب زوجته كلما رآها تخرج من الدار .. فلم يكن أن يرضيه أن يتلقى طوفانا من العار والخزى كل يوم .. ولم يكن يطيـق أن يجلس مع الناس فى أماكن الضيافة والسمر حتى لايهمـس أحدهم فى أذن جاره بشىء .. فيحسب المسكين أنهما يتهامسـان عنـه ..

وكان كل فرد يتكهن القاتل فى سره .. ثم راحوا يتشاورون فيما بينهم .. أهو فلان أم فلان ! ..

وكان الكثيرمنهم يرى أن لامرأته يدا فى الحادث .. أن الزوج التعس كان يهددها بالطلاق والقتل فى كل حين ..

وكان عبد العظيم يسكن فى المنزل الذى يواجه منزل القتيل ولانه أعزب فقد تحدث بعض القرويين عن احتمال قيام علاقة بينه وبين الزوجة الشابة ..

وجاء موكب الحكام يرج الارض ويثير الغبار كأنه جيش من الغزاة .مأمور المركز ووكيل النيابة ومعاون الادارة وضابط نقطة البوليس وفريق من الجنود ..

جاءوا فى الصباح الباكر قبل أن تطلع الشمس . وقال مأمور المركز للعمـــدة :

ـ ماذا أعددت لنا من طعام الافطار .. ان سعادة وكيــل النيابة يحب أن يفطر على دجاجة مسلوقة ومعها جانب من الزبد أو عسل النحل .. ومعاون الادارة لا يدقق كثيرا فاذبحــوا له دجاجة أخرى .. أما أنا فأنت تعرف ..

وضحك كأن ثمة فـكاهة مستملحة ..

ـ أنت تعرف ضعف معدتى .. يكفينى عشر بيضات بالزبد وقد قالوا لى أنكم تصنعون فطائر لذيذة ولكنى لم أذقها ..

وضحك المأمور فرحا بما أصدره من أمره الى العمدة بشأن الطعام ثم عاد يقول :

ـ وفى الغداء .. لا بد من أن يحتاج الامر الى بقائنا هنا عدة ساعات .. هل قبضتم على أحد ؟

آه دعنا من هذا الان .. اننى لا أحب لحم الخروف الا اذا كان جيد الطهو .. ربما كان من الافضل أن تضيفوا الى الطعـــام بعض الحمام .. هذا لان سعادة وكيل النيابة لم يأكل عندك من قبل .. واحتفظ لى بكبد الخروف .. أريده مشويا فأنت تعرف ضـــعف معـــدتى ..

وضحك المأمور مرة ثالثـــة ..

ولم يسع العمدة الا أن يضحك هو أيضا .. وظل الحديث فى دائرة طعام الافطار والغداء والضيوف الاخـــرون يصـــغون ويبتســـمون ..

وعرف أهل القرية أن عليهم ضريبة جديدة .. ومن لم يملك

دجاجة ولا حماما عليه أن يدفع ثمنه .. كل واحد يدفع مايخصه .. هذا الفقير المحروم الذى لم يذق طعم الدجاج منذ عام يجب أن يدفع خمسة قروش ليست موجودة فى جيبه على كل حال .. واذن فليقترضها أو يبيع من متاعه شيئا يوازى هذه القروش الخمسة .. ومتوسط الحال عشرة قروش . والقروى الذى يمتلك فدانين يجب أن يدفع خمسين قرشا ..

وانطلق الخفراء فى القرية .. يروعون أهلها بما يطلبونه من هذه الضريبة المفاجئة .. وكان النسوة يختفين وراء الابواب ويدعين أن ليس معهن شيء .. وأن الزوج غائب والاحوال سيئة وكن يعرفن أنهن سيدفعن هذه الاتاوة فما على التى ترفض دفعها الا أن تساق الى منزل العمدة .

وقال وكيل النيابة :

— ما اسم هذا القتيل ؟

— اسمه محمد ابو حسين ..

— وكيف عرفتموه ورأسه مفقود ؟

— من ملابسه .. أى والله من ملابسه عرفناه ..

— وماذا كان هذا الرجل ؟ ..

— ان جيت للحق ياسعادة البك .. هو رجل طيب فقير يشتغل أجيرا عند الناس ..

— ألم يكن له أعداء ؟

— الله ورسوله أعلم ..

ويدخل فى هذه اللحظة شيخ القرية الذى كان يبغض العمدة ويستثقل ظله قائلا :

— لا تقل هذا يا حضرة العمدة ..

— وماذا ترانى قلت ؟ ..

ـ أنت تعـــرف ..

وقال وكيـــل النيـــابة :

ـ يعرف ماذا ؟ ..

ـ يعرف أن للقتيل أعداء .. أصل الكاية يا سعادة البك..

وجلس شيخ القرية وجعل يلوح بيده ويقول :

ـ الحكاية ان لهذا الرجل زوجة ليست كما يجب أن تكون عليه الزوجات ويوجد هناك كثيرون .. كثيرون جـــدا يعرفهم حضرة العمـــــدة ..

ـ أنا .. ؟ .. !

وانتفض العمدة من الغيظ كأنما وجهت اليه تهمة قتـــل هـــذا الرجـــل ..

ـ أنا أعرف ؟ من قال هذا ؟

وعاد العمدة الى وداعته وهو يقول :

ـ ومع ذلك فان الافطار قد أعد .. تفضل ياســـعادة البك .. تفضـــل ..

وذهبوا جميعا الى مائدة الافطار وكانوا يضحكون ويثرثرون .. والقرية كلها تقف على قدم وساق فى انتظار نتـــائج البحث والتحقيق .. أتراهم عرفوا القاتل ؟ من يكون هذا الشرير ؟..

وزحف المخبرون على الدور وأماكن الاجتماع يصغون الى كل كلمة ويتصيدون كل اشارة .. وعرفهم أهل القـــرية فكانوا يتحاشون أن ينطقوا بحرف أمامهم خشية الوقوع فى المكروه ..

كانت الجريمة جريمة القرية .. أى أنها لم تكن تحمل طابع الاجرام الذى اختص به الاقطاعى الكبير .. لذلك حار أهل القرية فى استنكاه حقائقها ولو أن صاحب السعادة هو المحـــرض على القتل لمـــا استغرق تحقيق الجريمة خمس دقائق ..

ولما لم يجد ناظر المدرسة احدا من هؤلاء الضيوف يستحق شرف صداقته هز رأسه قائلا :

– حكام متغطرسون ..

وسأل المأمور :

– ألم يحضر الدكتور بعد .. ؟

وقال معاون الادارة :

– لعله يعالج أن يفيق من سهرة الامس .. لقد شرب أكثر من الجميع وخسر أكثر من الجميع ..

وضحكوا لهذا اللغو فان حياة هؤلاء الموظفين فى الاقاليم تجرى على هذا النحو الشائن .. يلتقون فى النادى أو فى منزل أخدهم الشراب والقمار .. ولا بد أن تكون ثمة زوجة مسكينة تغمرها الأقاويل والاشاعات من كل جانب ..

ففى هذا الحيز الضيق يحاول كل فرد من أفراده أن يظهر موهبته فى الاختلاق والكذب ..

وأكثر الزوجات عرضة للفضيحة والطلاق .. هن أولئك اللواتى يتزوجن من موظفين فى الاقاليم .. ولعل هذا سبب احجام أكثر الاسر من زواج فتياتهم بالاقاليم ..

وسأل العمدة :

– هل شرعتم فى اعداد الغذاء ..؟

– نعم شرعنا فى اعداده .. ذبحنا خروفا ودجاجا وحماما وجلبنا فاكهة من البندر ..

– فاكهة ؟.. ما هى ؟ ..

– تفاح .. يا سعادة البك .. تفاح وعنب وخوخ ..

– ولكنك نسيت ما هو أهم من الطعام ؟

ـ مــــاذا ؟ ..

واستطار لب العمدة وأحس كأن المنصب يتمـــايل تحت قدميه فسأل :

ـ نسيت ماذا ؟

ـ نسيت زجاجتين ..

ـ آه هما عنـــدى وحيـــاة ســـعادتك ..

وجاء الطبيب يلهث من الاعياء وعيناه متورمتان ويده ترتعش .. وقد أعرب للعمدة عن رأيه فى آباء وأجداد أهل القـــرية هذه وخاصة هذا القتيل الذى أرغمه على أن يترك فراشه ..

وقال :

ـ أحس صداعا شديدا هنا ..

واشار بأصبعه الى جبهته ..

يا ويلى .. متى يتوب الله على من هذه المهنة ؟.

وقال معاون الادارة متفكها :

ـ لقد شربت بالقرش كله .. وهذا جزاؤك

ـ ان الشراب لايؤذينى ..

وذكر أنه فى صدر الشباب راح يشرب ثلاثة أيام بلياليهـــا دون انقطاع .. ولكنه أصيب بالبرد وهذا كل مافى الامر ..

ثم قاموا لتناول طعام الغذاء ..

دون جوان

استيقظ عبد العظيم من نومه وبه دوار من أثر ما عانى بالأمس وأخذت عيناه ثوبه الابيض فاذا هو ملوث بالدم فاشتدت دهشته وخامره الشك فيما يرى ويشهد ..

ـ أهذا دم .. ومن أين جاء ؟

ورأى على الارض مدية ملوثة بالدم .. فازداد عجبه من هذا .. ثم زايله العجب واشتد به القلق كأنما توقع من وراء ذلك شرا لايدريه ..

ـ من الذى صنع هذا ..؟ اننى لا أشرب الخمر .. ولم يذهب عقلى حتى أرتكب هذه الفعلة ، وبينما هو مشدوه .. اذا بالباب يدق وأصوات عالية تصرخ.. فلما فتح الباب وجد ضابط بوليس وخمسة من الجنود .. وعمدة القرية يقول :

ـ هو ياسعادة البك .. هو بذاته عبد العظيم محمد الشلقامى المجرم الخطير ..

وقال عبد العظيم :

ـ عن أى شيء تتحدث ..؟

ولكن الضابط لم يلتفت اليه بل انطلق يفتش فى الحجرة عن أدلة الاتهام ولم يحتج الى كثير من الذكاء أو الجهد حتى عثر على أدلة الجريمة فى الثوب الملطخ بالدم والمدية الملقاة على الارض ..

ونظر اليه الضابط طويلا .. ثم قاده من كتفه الى الباب قائلا :

ـ أخرج أيها المجرم .. ستلقى جزاءك عاجلا ..

وذهل عبد العظيم عن كل ماهنالك .. وقضى لحظات وهو يسير دون وعى .. انه لايدرى ماذا صنع .. وماذا هو صانع .. ولا يعلم كيف جاءت اليه هذه التهمة البشعة ؟ ..لقد حسبوه القاتل . وهذه أدلة الاتهام ، الدم الذى يغرق ثوبه .. المدية التى تكمن الى جواره كأنها شاهد .. ولكنه اذا كان قاتلا فهل يترك هذه الادلة فى منزله ؟ ..

وسأل عبد العظيم الضابط فى حياء :

ـ ماهى الحكاية ؟

وامتعض الضابط من سؤاله ، ثم قال :

ـ سنعلم ماذا هنالك .. هل تنكر أنك قاتل محمد أبو حسين .. ؟

ـ أنا . ولماذا ؟ ..

ـ ستعرف هذا بعد قليل ..

ووصلوا الى منزل العمدة وأوقفوه أمام وكيل النيابة والمأمور وقال العمدة :

ـ هذا هو القاتل يا سعادة البك ..

ورأى الى جواره زوجة القتيل تبكى وتعول وقد جاءوا بها شبه عارية بعد أن أوسعوها ضربا وكانت تصرخ قائلة ..

ـ هذا حرام .. أنا ما قتلته .. ولا أعرف الذى قتله ..

وكلما فتحت فاها محتجة ضربوها عليه .. ولكنها لم تستطع أن تفقد لسانها فتسكت ..

ثم ارتمت على الارض فى اعياء وضعف فجعلوا يضربونها حتى تقف على قدميها .. اذ لايليق أن تجلس على الارض وهى

تسأل من وكيـل النيــابة ..

وســـألها وكيـل النيــابة قائلا :

— هل تعرفين هــذا الرجل ؟

— أعرفه ؟.. ولماذا أعرفه ؟..

— ألم تريه من قبل ؟ ..

— ألم ترينه من قبـــل ؟ ...

— رأيته فى الطريق .. انه يسكن أمامنا ..

— آه .. ألم يحضر الى منزلـكم ؟

— لا .. أعنى لم ..

وضربوها حتى لا تتردد فقالت :

— حضر مرة الى منزلنا .. كان زوجى مريضا فأحضر له دواء .. هــذا كل ماهنالك ..

— آه .. كان زوجك مريضا وقبلك أنت وجلستما معا .. قولى ! ..

وفطنت المرأة الى مايريدون فصاحت :

— لا ليس هذا .. بشرفى ليس هذا ..

وضحكوا جميعا لان المرأة التعسة أقسمت بشرفها امام الحــاكمين ..

وضربوها .. ..

— شرفك وتقسمين به يا فاجــرة ؟

ثم سألوا عبد العظيم :

— هل تعرف هذه المــرأة ؟

— اننى أعرفها كما أعرف نساء القرية هذه الفقيرات ..

واراد معاون الادارة أنيبارك خفة روحه بنكتة فرماها قائلا:

— دون جــوان ..

وســـأله وكيل النيابة ..

ـ كيف تعرف هؤلاء السـاء ؟ ..

ـ أعرفهن لاننى أعيش معهن فى قرية واحدة .. هـــذا كل مافى الامر .. انهن غير محجبات وهن يقضين حياتهن فى الطريق وفى الحقل أكثر مما يقضينها فى منازلهن ..

ـ ولماذا قتلتـــــه ؟ ..

ـ لا تسأل .. وأجب على كل ما يوجه اليك أيها الحيوان.

ـ اننى أترك الرد على هذه الاهانة لضميرك .. ولكنى لم أقتله وليس لى به شـــأن ..

ـ اذن فان القتيل الفاضل بعد أن ذبح نفســه بالمـــدية ذهب الى منزلك ولطخ ثوبك بالدم وترك المدية هناك ثم عاد الى مكانه مرة ثانيـــة ..

ـ لا أعلم شيئا عن هذا الذى وقع فى منزلى .. ولا أعرف سببا واحدا يدفعنى الى اقتراف هذه الجريمة ..

ـ السبب واضح . فهذه المرأة التى كنت تذهب اليهـــا فى منزلها ، وهذا الزوج الذى رأيتما أن تزيحاه من الطريق ..

اننى، لا أملك أن أدفع ما تقول الا أن هـــذه المرأة مسكينة التهمتها نيران الاشاعات من كل جانب .. وقد تكون بريئة من كل ما أشاعوه عنها .. اذ يكفى فى القرية أن توجد زوجة ذات ملاحة لزوج فقير متعطل فتنطلق عنها الاشاعات فى كل مكان .. فلماذا عسى أن يصنع هؤلاء الرجال المتعطلون وهم جلوس الى جوانب الجدران غير ترويج هذه الاشاعات ..

ـ دعك من هذه الفلسفة الفارغة وقل لنا لم قتلت هـــذا الرجـــل ؟ ..

— ألم تقل اننى قتلته لاننى عشيق زوجته ؟

— آه .. وتعترف اذن .. سجل عليه ياحضرة الـكاتب اعترافه الواضح ..

— أنا أعترف .. أعترف بجريمة لم أرتكبهـــا .. ولكنى أتحدث عن اتهامكم اياى بما ترونه ..

اننى لا أطيق أن أفكر فى أرتكاب جريمة فضلا عن تنفيذها

— أين كنت مســـاء أمس ؟

— كنت فى الجمعية مع اخوانى حتى الساعة العاشرة مساء

— وبعد الساعة العاشرة أين ذهبت ؟

— ذهبت الى المنزل .. والى أين ذهبت بالله فى هـــذه القرية .. هل أروح للسينما ؟ ..

— انك صفيق وتستحق أن تضرب .. أيها الجندى ناوله شـــيئا ..

وناوله الجندى ذلك الشيء .. ضربه على وجهه وعلى قفاه .. ولم يكن عبد العظيم يتوقع هذا الشيء يحدث فاشتـــد ذهوله وزايلتـــه فصاحتـــه ..

وجيء باخوانه أعضاء الجمعية .. وكان ناظر المدرســـة صامتا لاينطق فلما ســـألوه قال :

— لا أعرف .. لا أعرف شيئا عن هذا الحادث .. ان الاستاذ عبد العظيم صديقى ولـكنى لا أعرف أسرار حياته ولا أود أن أعـــرف .. ..

وســـألوه :

— هل كان حقيقة فى المســـاء ؟

— كان معنـــا .. الشهادة لله أنه كان معنـــا ثم استأذن

وانصرف .. ..

ـ هل سمعت اشاعات تومىء الى علاقته بهذه المرأة ؟

ـ لا أعلم ولكن هذه المرأة سيئة السلوك وهو يسكن بجوارها .. ..

ـ اذن فأنت تعرف انه كان على صلة بها ؟

ـ من أين لى أن أعرف .. اننى أقسمت على أن أقول الحق .. ولا شىء غير الحق ..

وجاء اخوانه الآخرون .. وكانوا أقوياء فنفوا عن زميلهم التهمة وأكدوا أن رجلا مثله لا يهبط الى هذا المستوى ..

وقال وكيل النيابة الى واحد منهم :

ـ فتش عن المرأة يا أستاذ ..

ـ ان هذه المرأة لا يمكن أن تدخل فى حساب زميلنا الاستاذ عبد العظيم .. انها امرأة تافهة وهو الرجل المثقف المتعلم ..

ولكنهم رغم ذلك اقتادوه الى السجن ومعه تلك المرأة .. وقال العمدة مؤكدا :

ـ سوف يشنق ما فى ذلك من شك .. واذا تلطفوا معه فسوف يحكم عليه بالسجن المؤبد ..

وقال عوض حسان لعطيه محمد السحيلى :

ـ انت رأيت عبد العظيم افندى مع المرحوم ابو حسين فى ليلة الحادث يسيران معا الى الحقل ؟ .. ؟

ـ أنا ما رأيته .. أقسم بالله العظيم ما رأيته .. امرأتى طالق ان كنت رأيته ..

ـ ولكن محسن بك شقيق عمدة البندر يقول أنك تشهد

يهـــــذا ..

ـ لا .. لا .. لا هذا حرام أين يذهب الانسان من غضب الله .. .. ..

عيناى هاتان لم ترياه .. أقسم بالله ما كنت لابيع ضـميرى لاحـــــد ..

ـ ولكنه أرسل اليك معى هذه الجنيهات الخمسة ..

ـ أرسلها لى أنا .. لا يمكن أن اشهد زورا ..

وقال لى آذا لم يرض ادفع له خمسة جنيهات أخرى ..

ـ آذا لم يكن بد من الشهادة فأنا قد رأيته .. ولكن فى أية ســـاعة كان هذا ؟ ..

ـ فى المساء بعد صلاة العشاء بنحو ساعة .. لن تقـــول لهم انك رأيته وأنت تنظر الى ساعتك ..

ـ ولم لا ؟ ...

ـ لانه ليست لديك ساعة .. وثانيا انه كان معك فى هذه اللحظة توفيــق أسماعيل المستكاوى وتحدثتما عن الرجلين ..

ـ آه .. فهمت ..

وذهب هذان الشاهدان فأديا شهادتهما كما حفظـاها ..
وما من ريب فى أن القروى شديد الحيطـــة موفور الدهاء ..

أورثته الاحقاب المديدة فى الظلم والطغيان روح الحذر وتوقع الشر حتى انه لا يستطيع أن يثق بأحد .

راقب قرويا فى طرقات العاصمة وسيسألك عن الطريق الى مكان يعينه فاذا أرشدته اليه تولى عنك ليسأل غـيرك ثم هـــو يســـأل غيركمـــا ..

وقد وقف هذان الشاهدان أمام وكيل النيابة يجيبـــان

على ما يوجهه اليهما من أسئلة ... انهما ينصتان فى حذر ويصمتان عن الاجابة فى كثير من المواقع ويظهران السذاجة والبساطة حتى لا ينفذ وكيل النيابة الى الشك فيما يقولان ..

وشاع فى القرية وفى جميع القرى المجاورة أن عبد العظيم برىء .. وان هذه التهمة لفقت ضده .. وعرف الصعلوك العارى والسيد الانيق كم أخذ هذان الشاهدان من أجر على شهادتيهما ومن الذى حرضهما ....؟

غير أن أحدا من هؤلاء التعساء لم يحاول أن يكشف عن هذه الحقيقة .. انه لا يريد أن يزج نفسه فى مضايقات مع الحكام ولا يستطيع أن يسمح لضميره بأن يفزع من الاساءة الى برىء ما دام هذا الشر ليس من صنعه ..

ليذهب كل يوم مئات من الابرياء الى السجون ... وليشنق عشرون منهم أو أكثر .. فما يهم القروى من هذا الامر الا أن يستمتع بحكاياته ويشبع خياله من التهويل فى سرد وقائعه ..

ومن هو عبد العظيم الشلقامى ؟.. معلم الزامى يشرب الشاى ويقبض جنيهات كثيرة فى كل شهر وتبلغ به كبرياؤه ألا يجلس مع القرويين على الارض ..

أليس هو الذى أجبر والد الطفل على أن يبقيه فى المدرسة بدل أن يرسله الى البندر خادما ؟ . اليس هو .. وذكروا له هذه الجرائم كلها فبغضوه وودوا جميعا أن يشنق مرة أو مرتين وان كانوا يعلمون أنه برىء .

ليذهب الى الشيطان ببراءته وليغرق فى بحر من الحديد المصهور .

واحس العمدة الراحة الكبرى حين أزاح عن كاهله عبء هذه

الجريمة.. القتيل ووري التراب والقاتل مقبوض عليه وسيشنق.

لكن أهو القاتل حقا ؟ لم يسمح العمدة لنفسه بحق توجيه. هذا السؤال اليه .. ان واجبه حين يفصل راسه عن جثتــــه. .. ان يجد القاتل وقد وجدوه وانتهى الامر .. وماشانه هـــو اذا كان القاتل بريئا ..؟ ان ذلك يقتضيه ان يبحث عن قاتــل اخــــــــر .. او ..

— او مـــــاذا ..؟

أو أن يهلكه المأمور بالسؤال الدائم عن هذه القضية .. وقد يوقف عن عمله .. وفى هذه الحال يجمع افراد الاسرة المنافســة له مبلغا من المال ثم يذهبون الى المديرية ومنها الى القـــاهرة .. وهناك يتصلون بسماسرة قضاء المصالح .. وهـــم اناس برعوا فى هذا اللون من العمــل ..انهم اصدقاء جميع الوزراء بـــدون استثناء وكذلك وكلاء الوزارة وكبار الموظفين وهم أصدقاء جميــع النواب .والشيوخ .. وان زوجاتهم ليعرفن زوجات جميع هــؤلاء. الكبار وما من عمل يعجزون عن آدائه ... مامن عمـــل .

السجين المحكوم عليه بالاعدام يستطيع أى صعلوك من هؤلاء. السماسرة ان يخرجه من سجنه والشباب الخائب الذى لايحمل شهادة قط يمكن ان يعين سكرتير وزارة والشاب الذى اخذوه مجندا فى الجيش فى الاستطاعة ان ينزعوا عنــه ثوبه العسكرى ليعود اجيرا فى قريتــه كما كان .

وتنبه العمدة من خواطره فاستعاذ بالله من الشيطان ونادى أحد خفرائه ليبعث به الى رجل فى القرية ارسلوا فى طلبه عشرات المرات لأنه وقع فى مخالفة .. وفى كل مرة كان يدفــع للعمـدة عشرة قروش فيكتب الى مركز البــوليس انه غائب ..

وقال للخفـــــير :

ــ قل لعبد الباسط الواصلى اننى لن اعفيه هذه المرة الا اذا دفـــــع ريـــــالا ...

وجاء فى هذه اللحظة خمسة قرويين من اولئك الذين يسعدهم ان يقضوا السهرة فى منزل العمدة وان يتحدثوا عن اهل القرية حديثا لايخلو من الدس والريبة وتحـــــريك الشبهات .

وعندما كانوا يشربون القهوة ويدخنون جاء قروى اخر كـــان قد ضرب زوجته وخشى ان ياخذه العمدة بهذه الحادثة فسـعى اليه متلطفا .. وكان العمدة يعرف انه سيقبض من هذا الرجل ثمن ســــكوته .. وكان الجالسون يعرفون كذلك ان العمــــدة سيقبض هذا الثمن .. ولكن المسألة لايمكن ان تجىء على هــذا النحـــــــو .....

ان تجارب العمدة ارشدته الى ان الرجل يخفى ثمن سكوته فى قطعة من القماش يلفها على رقبته فقال له :

ــ اعطنى هذا لافرشه على الارض واصلى لله ..

ولم يكن العمدة متوضئا .. ولكنه اراد ان يستولى عـــلى الثمن بهذه الوسيلة ولما اهوى بالسجود طالت سجدته .. فاذا هو يحاول أن يستخلص الثمن المربوط فى قطعة القماش .
وعاد الى المجلس يقـــول :
ــ ماذا نصنع ؟ ارسلوا الى عشرين بطاقة دعوة الى حفــــلة تمثيلية تقام فى البندر وثمن كل بطاقة عشرون قرشـــا .

وهكذا افاد الخمسة الجالسون مع العمدة . متعة المساهمة فى احياء هذه الحفلة .. وخرجوا وهم يسرعون خشية أن يعثر العمدة على بطاقات دعوة اخرى لحفلة تمثيلية اخـــرى ..

خرجوا دون ان ياخذوا معهم البطاقات التى دفعوا ثمنهـــا .. لان العمدة سيرسلها الى قوم اخرين فياخذ ثمنها منهـــم ويستردها ليرسلهاالى ســـــــواهم ..

وكان الذى يغيظ العمدة حقا ويشغل باله .. ان يقـــع حادث قتل فى قريته ولايفيد من ورائه شيئا سوى ان يقيم وليمتى افطـــــار وغـــــذاء للحـــــكام ..

لو ان زوجة القتيل ميسورة الحال .. ولو أن اهل عبدالعظيم جاءوا اليهيرجون منه ان يسعى للافراج عنه .. ولكن احدا لم يسأل عنه . لاأحد .. وكثيرا ماأوعز لبعض الخفراء ان يتتبعوا والدة زوجة القتيل ... وهى امرأة فى الثمانين من عمرها مكفوفة البصر .. لاتملك ســوى الدعاء لمن يهبها قطعة من الخبز اوجانب من الاكـــــــل ...

ولكن العمدة حسب ان فى الامكان استدراجها الى دفـــع مبـــــلغ من المـــال ..

اى مبلغ !وكان الذى يلقاها من الخفــراء يقول لها :

— ان العمدة شديد الاهتمام بابنتها وأنه قادر على ان يفرج عنها اذا ..

وكانت المرأة الضريرة ترفع يديها الى السماء لتبتهل الىالله أن يهب العمدة كل مايطمع فيه من غبطة وهناءة وان يبقيه ذخرا للعبــــاد .

غير أن الدعاء وحده لا يكفى فى ارضـــاء العمـــدة ... فكانوا يصارحـــون المرأة .. ولكن من اين المـــال ؟

ان كل ماتملك هذه المرأة العجوز مضافااليه شخصها المبجل لايساوى خمسة قــروش .

وجاء ناظر المدرسة آلى دار العمدة يشكو ويتوجع .. آن خادما عنده سرقته وهو حائرمشدوه لايدرى ايشـكو للعمـدة ام يسـكت .. ؟

وقـال العمـدة :

ــ سرقت ماذا ؟

ــ سرقت دواء اسنان فى انبوبة جميلة شكلها ابيض وعليها كتـابة بلغـة الفرنج .

ــ وكيـف سرقتهـا ؟

ــ آكلتهـا .. تصور ياحضرة العمدة ... اكلتها لانها اعتقـدت انهـا شىء يؤكـل .

وجعل يقـول آلحكاية ويعيدها عشر مرات .. ويهمنا ان لهذا الالزامى خادما تاكل وتشرب وتقبض مالا كل شهر ..- ولا عجب فهؤلاء الالزاميون ينشئون طبقـة ميسـورة آلرزق .

لقد ارتفع المعلم الالزامى عن مستوى طبقته آلتى كان فيهـا بفضل ثقافته ومرتبه الذى يحاول جادا ان يستتر به مظهره

وفضـل هؤلاء الالزاميين لا ينحصر فى أنهم يعلمون أبناءنا ما يجهلون ولـكنه يتخطى هذا الى أن أبناءهم لن يكونوا جهلاء قط وانهم يحاولون ان يوجدوا فى القرية هذه القدوة الحسنة فىنظافة المنزل وحسن تربية الابناء ..

وإن فيهم من يحاول أن ينشىء لنفسه ولاسرتهثروة فيشترى فى كل عام بضعة قراريط من آلارض وفيهم من ينفق مافى الجيب وينتظر ماعسى أن يجىء به الغيب ..

وفى كل قرية تجد المعـلم الالزامى محوطا بالرعاية والبـغض والتقـدير .. ولكنهم أهل وفاء ومودة .. المعـلم الالزامى يعتبر

بمثابة مستشار لجميــــع الناس ..

يسألونه عن أخبار السياسة وعن أفضلية السـير وراء الجنازه أو أمامها وعن دواء العين المتورمة .. وعن مصير هتلر أحى هــو يرزق ام ذهب الى السماء .

وقال ناظـــر المدرسـة للعمـــدة :

ـ مسالة تافهة .. لاموجب لان اقدم بها شـكوى .. اسعد الله مســاءك .. وانصرف .

خلف القضبان

اثار حادث عبد العظيم الشلقامى زوبعة هائلة خاصة انـه عضو فى الاتحاد العـام .. ونشط اولئك الفتيان الالزاميــون فى سبيل اسمى غاية فى الوجود .. فى سبيل حرية زميلهم الذى عرفوا براءته من التهمة الحقيرة فراحوا يعالجون الامر باساليبهم الناجحة اتفقوا مع محام مشهور مرتفع الاجـر على ان يتـولى القضية بنفسه ودفعوا له من جيوبهم خمسين جنيها مقدما .. وفى كل يوم كان يمر بمكتب هذا المحامى واحد او اكثـر مـــن هؤلاء الزملاء ليروا ماذا صنع بقضية زميلهم ..؟

وكان المحامى لايقول لهم كل شىء ..أو على الاصح كان يقول لهم كل مايعرف .. ولكنه يوهمهم بانه يخفى عنهم اشياء ذات قيمة وكان جهلهم بهذه الاشـياء يبعث فى نفوسهم أطيب الامال ..

وقـــال المحـــــــامى :

ـ اننى الان واثق كل الثقة من براءته .. هذا قتيل تافـه القدر ليست له اسرة فتاخذ بثأره .. ترى لماذا اخفوا راسه ؟. انا اعلم .. ليوقعوا بريئا فى جريمة قتــله ..

وســـأل المحـــامى :

ـ ماهو الدليــل على ان هذا هو جســد محمد او حسين؟

فقالوا نقرأ أجوبة زوجة القتيل . فقد سالها وكيل النيابة عما اذا كانت تعرف أن فى جسد زوجها علامة مميـــزة ؟ فقالت لـــه :

— آن كل ماتعرفه من علامات مميزة فى زوجها هو انه كانت على عينه اليسرى سحابة .. وغضب وكيل النيابة حين سمع هذا القول .. فعين القتيل وسحابتها قد ذهبتا مع راسه ..

وقالت الزوجة حين ضربوها :

— آه تذكرت كانت له حسنة سوداء على راحة يده اليمنى ..

ولكنهم لم يجدوا هذه الحسنة السوداء فى أى مكان من جسده .. فاعتقدوا انه ربما كان قد أزالها . او انها زالت من تلقاء نفسها .. لم تكن للقتيل حسنات قط سوى أنه فارق الحياة .

وضحك المحامى من نكتته وضحك منها وكيل مكتبه .. وقال زملاء عبد العظيم :

— أذن فماذا ترى فى هذه التهمة ؟

التهمة مدبرة مافى ذلك من شك . فليحضروا لنا راس القتيل .. اذا ارادوا ان يتهموا موكلى البرىء ..

وجاءت سناء قرينة عبد العظيم .. الحلوة الفاتنة .. جاءت مع اخيها عبد الموجود عباس وكانت تبكى .. لم تهدأ نفسها الثائرة لحظة ولا سكتت دموعها ولا خفتت صيحاتها .. فانها لم تكن تتوقع ان تنكب فى آمالها على هذا النحو .. ان تفقد عبد العظيم القوى الطاهر وان تصغى الى آحاديث التافهين عن صلاته بهذه المرأة .

لم تصدق قط ان عبد العظيم عرف هذه المرأة او صاحبها .. ورفض قلبها الساذج ان يسىء الظن بالمعشوق .. ولكنها — على الرغم من كل ذلك — تمنت من صميم قلبها ان ترى هذه المراة لتحكم على مالها من قبح او جمال .

وقد تمثلها فى خيالها .. صفراء معروقة الذراعين.. قصيرة. شوهاء وربما كانت تعرج .. فان فى قريتهم أمرأة دميمة تعشق الرجال وفى قدمها اليسرى عرج خفيف ..

وذهبت الى السجن تحاول جاهدة ان ترى عبد العظيم . وان تجثو بين يديه معتذرة .. كانما هى التى قذفت به الى هذا المكان .. ولكنهم حالوا بينها وبين ماتريد ..

وأرادت ان تجرب المال فى ارشاء هؤلاء الحراس غلاظ الاكباد .. الذين يبصقون على الارض ويلعنون كل من تسول له نفسه الاقتراب منهم . فرفعت ذيل ثوبها واخرجت من صدرها منديلا ابيض فيه بعض الحلوى وبعض المال .. وقالت للحارس:

ـ خذ هذا .. ودعنى ار عبد العظيم افندى ..

ونهرها أخوها ورفع يده ليضربها فما يريد أن يزج بنفسه فى مأزق لايتسنى له الخروج منه على أن الحارس كان شرها وطيب القلب فاخذ منها المال ونصحها ان تنتظر حتى صباح اليوم التالى ..

وقال لها :

ـ سيخرج عبد العظيم .. اليس هو الشاب الطويل الابيض الذى فى خده علامة سوداء ..؟ هو قاتل المرأة زوج المرأة المسجونة معه .. سيخرج صباحا الى النيابة ويمكنكما ان ترياه وهوذاهب الى النيابة ..

وتدخل اخو سناء فى الامر موضحا وهو يقول :

ـ كلا لم يقتله .. المسألة ان عبد العظيم افندى .. وهو ابن عمى .. وراح فى اندفاع وحماسة أن ينفى التهمة أمام حارس السجن كأنه محام يدافع عن موكله أمام قاض .. وخيل اليه انه بالغ امره فى اثبات براءة عبد العظيم اذا استطاع ان يقنع

هذا الحارس بمنطقـــــه المعقـــــول ..

على ان سـنـاء رفضت ان تغـــادر مكانها امام السـجن لتاكل او تنام .. مادام عبد العظيم يعيش على مقربة منها .. وراحت تسلى نفســها بالبكاء الصامت الاليـــم .

وفى الصباح اخرجوا عبد العظيم من سجنه مغلول اليـدين وقد طالت لحيته وتغيرت حاله ولكن روحه القوية لم تضعف ولـم تلن .. كان يحاول بكل ما فى وســعه أن يبـدو مرحا ليستر مايعانى فى قرارة نفســـه من آلام .

ورحب بابن عمه وبابنة عمه كذلك دون ان يعانقها .. فمـا أحوج النفس البشرية المظلومة أن تضم الى قلبها من تأنس اليـه فى هذه المحنة البشـعة .. وتذكر زينـــات ..

– اين هى الان ..؟

وراودته نفسه ان يسأل عنها ويتقصى انباءها فقد طالما ذكرها فى احلك ساعات ياســه .. ولكن من اين لقريبيه هذين أن يعرفا من هى زينـــــات ؟

قال عبـــد العظيـم لابنة عمـــه :

– لا تبكى .. انك تفسدين عينيك بالبكاء ..

وقالت لـــه :

– انا أبــــــكى .. لا ...

ثم أعولت بصوت مســـموع . .

وحز فى قلبه ان يرى فتـــاة مسكينة تتعقبه فى هذه المصيبة التى حلت به .. انها تحبه .. هذا واضح كانه مسطور على راحة اليـد .. ولكن بقاءها فى هذا المكان لتبكى على مصيره .. معناه ان تموت من البـــــكاء ..

ونصح لها ولاخيها بان يعودا الى قريتهما فما هو فى حاجـــة

الى شىء .. لقد كفل اخوانه مسالة طعامه فاتفقوا مع صاحب مطعم على ان يقدم اليه وجبات الغذاء ..

ولكن سناء رفضت ان تبرح هذا المكان الااذا برحه عبد العظيم ..

وفى اليوم التالى جاءت اليه ومعها عشرة جنيهات .. لقد باعت جزءا من حليها .. وقدمت ثمنه الى عبد العظيم قائلة :

ـ خذ هذا فانك قد تستطيع ان تنفقه على نفسك فى السجن

واراد ان يمنعها من ذلك فبكت .. وخيل اليه انها قد تعمد الى الانتحار اذا رفض تحقيق مطلبها فأخذ منها الجنيهات العشرة ثم اعطاها الى اخيها فى الخفاء .

ومضت ايام كثيرة وعبد العظيم لايغادر السجن الى النيابة .. فكانت سناء تقف على باب السجن من الصباح الى المساء .. وطالما شتمها الحراس واوسعوها ضربا .. فقد عرفوا ان فى صدرها شيئين هما كنزان لاينفذان .. قلبها الدافق بحب عبد العظيم وكيس نقودها الذى يشل ايديهم عن مواصلة ضربها فى قسوة وعنف . .

اما زينات التى اغرم بهاعبد العظيم وكانت السبب فى أنه زج به فى السجن ..والقيت عليه هذه التهمة التى تكاد تذهب بروحه فقد تفضلت وسالت عنه ..

وقالت وهى تخفى ابتسامتها :

ـ ماهو حال الاستاذ عبد العظيم اننى شديدة الالم من اجله .

وقال لها احد الزملاء :

ـ انه بخير لقد سالنى عنك ..

ـ عنى .. انا .؟

— نعم . قال انه لاينسى السويعات القليلة التى قضـــاها فى الاغتراف من ادبـــك .

وكان المتكلم يرمى الى التهكم والسخرية ولكن زينات خانتها غريزة المرأة فحسبته صادقا .. وكانت تعلم انها هى الســـبب فى كل ماحدث لعبد العظيم من ظلم واعنات .. كانت تعرف أن عينيهاهما اللتان قادتاه الى الوقوف فى طريق محسن خطيبهـــا الشرير وان الدنيا كلها تعرف هذه الحكاية فزاد هذا فى سرورها واغتباطها .. وفجأة أنقلبت الى فتاة تحب الادب والشعر فتركت عبد العظيم يحصى قضبان نوافذ السجن الحديدى وسالت احد الجالسين عن رايه فى قصة نشرتها احدى المجلات .

وســـــألها احـــد الزمـــــــلاء :

— الا يمكن ان تذهبى الى عبد العظيم فى سجنه لتخففى عنه متـــاعب الحيـــاة الاليمـــة التى يحيـــاها ؟

وتبدى الذهول والاستغراب على محياها الرقيق .. ثـم قـــالت :

— أنا ! وهل هذا يليق ؟. ماذا عسى ان يقول الناس عنى لو اننى ذهبت ؟

— أنهم يقولون .. زميلة كريمة تنشط الى موآساة زميـــل غـــــــدر به الــــــزمن ..

— لا .. دعنا من هذا وقل لى عن رايك فى كتاب توفيـــق الحكيم الاخـــــير ..

لم تكن تحس وجـوده حياتها .. بل انها اذا كانت تـذكره فلكى تزجى اليه آيات الشكر والحمد على ما اتاح لها من فرصـــة التحـــدث عنها فى كل مـــكان ..

ان الناس يقولون عنها انها سبب هـذه القضية وما أحلى ما يقولون لكم ودت ان يقتل اكثر من برىء في سبيل ان يزيد حديث الناس عنها كل وقت وحين ..

أما سناء التى احبت عبد العظيم لذاته .. فانها بقيت في مكانها امام السجن تسأل عنه كل من تلقاه .. وتروى حكايته لكل من يتلطف فيصغى اليها ..

ولما لم تقابله خيل اليها انه يعانى الضيق والكرب .. فباعت قطعة من الحلى ودفعت بثمنها الى احد الحراس حتى يوصله اليه ..

وطبيعى ان احد الحراس هذا لم يجد الوقت المناسب لاعطاء عبد العظيم هذا الثمن فابقاه فى جيبه ثم اضطر اخيرا الى انفاقه ..

وجاء كثيرمن اهل قرية عبد العظيم يسالون حراس السجن عنه ويجاملون اهله . وكانوا جميعا يتحدثون عن التهمة الشنيعة التى الصقت به ويعالجونها بالاحلام المثيرة .والاستشهاد بوقائع مضت ..

وجاء ناظر المدرسة مرتين وهو جاهد فى اخفاء شماتته واظهار عواطف رحمته ومودته وكان يقول :

ـ انه برىء .. اقسم على ذلك . انه لم يرتكب هذا الوزر ... انه صديقى ..

وظل عبد العظيم فى سجنه مهموما حائرا لايدرى كيف يدفع عن نفسه هذه الهتمة التى قذفه بها شيطان الحب .. وكان قد عرف ان عدوه محسن هو الذى اوقعه فى الشرك بتحريض من صاحب السعادة .. وكان يعتريه فى كثير من الاوقات يأس مرير قاتل ..

فيؤمن بانه سيشنق عن جريمة لم يرتكبها ويروح يتخيل ايـامه الاخيرة فى هـذه الحياة عندما يعرف أنهم حكموا باعدامه .. وقال لنفســـه :

— ان المرء يموت فى غمضة عين وهو فى أتم صحة وعافية . فلا تصليه خواطره الملتهبة عن الموت نارا .. اما أن يشعر الانسان بدنو اجله فكيف تمر به الثوانى والدقائق والساعات .. اننا نحب الحياة .. مافى ذلك من شـك .. لاننا انانيون نحب انفسنا اكثر مما ينبغى .. ولكن كيف يخرج من هذه الدنيا مقودا بايدى جلاديه .. لو أنه مات فى سبيل غرض عظيم لو أنه كان جنـديا يحارب الاعداء فى الميدان ولكنه يموت فى سبيل انسان مطعون فى شرفـه وعرضـــه وهو لم يقتـــله ..

وجعلت هذه الخواطر تعذبه وتقصى النوم عن جفنيه .. وكلما لاح له فى الافق أمل هين امتدت اليه خواطره السوداء فخنقته كان يؤمل مثلا ان تنكشف الحقيقة من تلقاء نفسها ويدهش قضاته حين يجدون انفســهم يحاكمون بريئـا . .

ولكن سرعان مايتحطم هذا الامل حين ينكر عقله الناضـج وقوع هذه المعجزة .. أن له محاميا معروفا ولكن ماقيمة فصاحته ونبوغه أمام نقطة من الدم لوثت ثوبه ..

ومرت الايام وهذه الخواطر السوداء تعتصر قلبه . وعـرف فى السجن اناسا غيره اكثرهم يقول عن نفسه انه برىء مظلوم . فهل كانوا مثله ؟ وهل يختبىء محسن ام اكثرهم يكذب على نفسه وعـلى النـاس ؟

ولما وجدوه مهموما مضطربا جعلوا يسرون عنه ويستدرجونه الى مشاركتهم فيما بين ايديهم من اسباب اللهو والعبث وعرفوا جريمته . فاكدوا له انهم يصدقونه حين يقول عن نفسه انه برىء

.. واكدوا لانفسهم انهم يصدقونها حين تقول عنه انه مذنب .

وطفقوا يحدثونه عن جرائمهم وادق أسرارهم وعولوا على أن يزجوا به فى محيطهم اذ أن عزلة سجين قد تغرى غيره من السجناء بالكآبة والخوف من المجهول .

ورووا له حكايات اكثر زائفة مثلا قريطم شعبان .. كان هنا أن يزجوا به فى محيطهم اذ أن عزلة سجين قد تغرى غيره من السجناء الشهود فى رواية الحادث قضى ببراءته .. وقال رجل منهم :

ـ اما انا فقد قتلت زيدان محمدين ولم اعترف .. ولو اننى ارضيت العمدة لما حضرت الى هنا .

وساله عبد العظيم :

ـ ولماذا قتلته ؟

ـ لسبب غريب .. فهذا الرجل كان معروفا فى بلدتنا بانه حسود وان عينه لاتخطىء الهدف ويروون عنه حكايات كثيرة منها انهم راهنوه مرة على ان يسقط « سباطة » بلح من اعلى النخلة وجاءوا به الى النخلة فرفع وجه اليها وبعد لحظة تساقط البلح عليهم كانما قطعته يد ماهرة وكان لى بقرة هى كل مااملك من دنياى .. وكنت احاذر ان تقع عليها عين زيدان هذا ولكنه رآها ولم يتكلم ..

لم يظهر اعجابه بها بل اغمض عينيه واطرق برأسه الى الارض .. وعدت الى المنزل فى المساء وانا خائف مهموم فجاءنى ولدى عبد الباسط وقال لى :

ـ بقرتنا لاتاكل اليوم يابى ..

وظللنا الليل كله ونحن بجوارها نبكى ونتوسل الى الله أن ينقذها . ولكن الله سبحانه وتعالى لم يستجب دعاءنا ، فعند ما طلعت الشمس كانت روحها قد فارقتها .

وضاقت بى الدنيا وخيل الى اننى ارى البقرة فى كل مكان انظر اليه وثمة عين خبيثة تلاحقها آينما ذهبت بل خيل الى اكثر من هذا .. ان البقرة تكلمت معى واستغاثت بى .

وذهبت الى صلاة العشاء ولم اذق فى يومى طعاما او شرابا . وعندما شرعت فى الصلاة اعتزمت ان اقتل هذا الحسود .. وصليت العشاء ثمانى ركعات ـ فقد كنت ساهيا عن الصلاة بتدبير خطة قتله .. كيف اقتله ؟ .. هذه هى المشكلة .. لست املك سلاحا ولكن ذلك لايمنعنى من قتله ، واديت الصلاة ... وذهبت الى الحقل الذى ينام فيه فوجدته وحده وعندئذ اطبقت عليه وخنقته بيدى هاتين .

ـ الم يقاوم ؟

ـ كان نائما مستغرقا فى نومه .. فلما استيقظ لم يستطع أن يصرخ .. لأن يدى كانتا تضغطان على رقبته ..

ـ وهل رآك أحد ؟ ..

ـ كلا .. ولكن أهله عرفوا حكاية البقرة فاتهمونى بقتله

وراى عبد العظيم رجلا يتودد اليه ويسعى الى اكتساب صداقته .. واسمه مصطفى عاكف رستم .. وكانت تبدو عليه رغم انه سجين ـ مظاهر الترفع والخيلاء ..

وقال لعبد العظيم :

ـ اننى حاصل على شهادة البكالوريا . وكنت اتولى منصب مدير أحدى الدوائر الزراعية ولكننى دخلت السجن مرتين متهما بقتل زوجتى .

ـ وكيف كان ذلك ؟

ـ لاادرى . فان هذا يحدث عندما افرط فى الشراب .. اننى

اشرب الخمر في كل مساء .. ثلاث كئوس او اربع كئوس فاذا اندفعت في الشراب عدت الى المنزل وجعلت افتش تحت السرير عن رجل اقتله . ثم انهض لاقتل زوجتى .

ومسح الرجل انفه باصبعه ثم قال :

ـ طالما حذرت نفسى من الاسراف في الشراب .. ولكن المرء لايملك ان يمنع نفسه في كل وقت وخاصة اذا وجدت الرفقه التى تغرى بالشراب ..

ـ ولكن لماذا تفتش تحت السرير ؟

ـ لاادرى ....

ـ الا تذكر فى صباك حادثا عائليا ؟

ـ لااذكر .. او على الاصح لااحب ان اذكر .

ـ لماذا ؟

ـ لانه حادث اليم لايليق بى ان اكشف عنه .

ـ هل شهدت وجوده بنفسك ؟

ـ انك رجل مهذب .. لست كهؤلاء المساجين الذين جاءوا من القرى يحملون مع عقولهم روث البهائم .. ان الحادث .. ولكننى مازلت خجلا من روايته .

ـ اذا لم تشأ أن ترويه .. فلا يجبرك أحد على روايته

ـ لاباس .. وانا فى الخامسة من عمرى .. أذكر أن أبى وجد رجلا فى غرفة نومه. وفى ذلك الحين استطاعوا ان يصرفونى عن البحث فى هذا الامر .. ولكن ..ماذا يقول الناس عن حماقات الاباء .. ؟

ـ فهمت .. ولكن اذا عرفت ان ليس هناك من رجل يختبىء تحت السرير فلماذا ترتكب جريمة القتل ؟

وسكت الرجل ولكنه ندم على ماقاله .. كانه لم يكن يحب ان يفضى باسراره الى احد ولكن جو السجن وظروفه وخوفه من أن يظل وحيدا مع نفسه .. كل أولئك أجبروه على أن ينثر كنانته .

وكانت فى السجن شخصية طريفة حقا .. تعرف عبد العظيم بصاحبها فراقته صحبته .. لم يكن محمد الشاطر ... سجينا ولكنه كان اعظم من ذلك .. وقصته انه كان فى زمن الحرب كواء واتصل بالسلطة البريطانية حينذاك وادخلوه فى وظيفة كواء فى السجن ثم جعلوه ضابطا .. ولما انتهت الحرب تقرر ان لا يعد ضابطا الا من تخرج فى المعهد الخاص بتخريج الضباط فنزعوا من فوق كتف محمد الشاطر نجمته ولكنه أصر على ان يبقى بملابس الضباط .

كان عليه ان يراقب عمل المسجونين .. فى بعض الاقسام .. وكان يصر على ان يحييه الجنود التحية العسكرية .. ولكى يصل الى هذا الغرض كان ينفق اكثر من نصف مرتبه فى هدايا يقدمها الى أولئك الجنود .

وعرف المسجونون أى نوع من الرجال هو .. فكانوا يسخرون منه ويفيدون من سذاجته وغفلته ،كان الواحد منهم يرفض ان يفتش الحراس جيوبه محتميا بسعادة محمد الشاطر بك وما ان يسمع محمد الشاطر سجينا يهتف باسمه على هذا النحو حتى يبادر الى انقاذه من أيدى الحراس .. وأرادوا أن يدخلوا السرور على قلب عبد العظيم فقالوا لمحمد الشاطر :

ـ يا سعادة البك .. صديقنا هذا يريد أن يراك فى كسوة التشريفة فانه يقول ان مظهرك لايتم على الوجاهة والعظمة .

وفى اليوم التالى جاء محمد الشاطر الى السجن وقد ارتدى

كسوة التشريفة وهى تزن اكثر من خمسين رطلا .. وكان الجو شديد الحرارة يشوى الابدان والرجل المسكين يتصبب عـرقا ويكاد يهوى على الارض تحت وطأة هذه الكسوة ولكنه لم يستطع ان يخلعها حتى لايشمت فيه عبدالعظيم .

وحدث مرة ان ارتكب سجين ذنبا فحكموا عليه بان يبـقى وحده فى زنزانته ، ولما دخل عليه الحارس قذفه بشتائم مهينة .. فانتفض السجين واعتدى على الحارس بالضرب فعاقبوه مرة اخـــرى .. وجاءه الحارس نفسه يظهر الشماتة فاعتـــدى السجين عليه بالضرب مرة اخرى ومن ثم ضاعفوا له العقوبة

وكانما ثار الحراس لزميلهم فجاء خمسة منهم وجعـــلوا يضربون السجين وهو يقاوم جهد استطاعته واشتد عليه الضرب حتى خر صريعا .. ولكنهم لم يتركوه فظلوا يضربونه . وكانمـا احس القوة فى نهاية الامر فوثب على قدميه وامسك برقبة احـد الحراس وضغط وصرخ الحارس واجتمع حوله زملاؤه يريـدون أن ينقذوه .. ولـكن السـجين كان رغم ما ناله من ضرب لا يقوى على أن يترك رقبة الحارس . ظل ممسكا بها حتى سقط الحـــارس على الارض وسقط معه السجين .. ووجدا فى النهاية ميتين .

القتيل حيّ يرزق

عرف اخوان عبد العظيم أن محمد ابو حسين القتيل حي يرزق وان الجثة التي وجدت في الحقل جيء بها من مكان بعيد وارغمت على ان ترتدي ثوب من اتهم صاحبهم بقتله ظلما .

ولكن اين هو محمد ابو حسين ؟ لاحد يعرف .. حتى ولا زوجته .. ولا ولي الله قريبه محمد النجعاوي الأمي الذي يتبعه خلق كثيرون والذي يقول مباهيا بنفسه :

— ان كان شيخ طريقتك حمارا فامسك بذيله .
يعني نفسه ..

وحار زملاء عبد العظيم فيما يصنعون . فلو ان هذا الرجل جاء الى القرية لخرج زميلهم من السجن . ولكنه اختفى . وربما قتله اخيراً أولئك الذين حرضوه على الاختفاء خشية أن يعود ثانية الى الظهور .

وذات يوم كان معلم الزامي اسمه الاستاذ عبد العظيم المقدم يؤدي واجبا محتوما . يتلخص في السلام على رجل وفد من احدى الموانى المصرية جاء ليشتري فدانين مما جمع في غربته اذ هو يبيع الفاكهة ..

واجتمع اهل القرية كلهم في منزل الرجل يهنئونه بسلامة الوصول .. ويأمل كل منهم أن يظفر بهدية ملائمة وكانوا يسألونه عن انباء السياسة كانه يشتغل بها لا بالفاكهة ... ومنهم من كان يستفسر منه عن اقاربه النازحين ..

وقدمت اكواب الشاى وابت كياسة بائع البرتقال هذا الا ان يضيف الى كل كوبة جرعة من رائحة عطـــرية لتبرز نكهته ونزبه من حــــلاوته .

وقال الرجـــــــــل :

ـ لقد وجدت هنـــــاك محمد ابو حسين ؟

ـ محمد ابو حســـــين ؟

ـ اى والله .. القتيل الهارب وجدته هنــــاك .

وضحك .. وضحك اهل المجلس كلهم من هذه النكتة الرائعة

وســـــأل المعـــــلم الالزامى :

ـ اين وجــــــدته ؟

ـ فى بور سعيد .. يشتغل فى محل للحاوى يملكه رجــل اجنبى ..

والتقى الزملاء كلهم بدعوة من زميلهم عبدالعظيم المقــــدم. ولمــا عرفوا القصة قرروا أن يســـافر اثنان منهم الى بور ســـعيد ليحضرا هذا القتيــــــل الهــــارب .

ولم يجـــدا عناء كبيرا فى العثور عليه .. فلما لقياه اجفـــــل منهما وحاول ان يفلت ولكنهما لاحقاه وقالا له :

ـ نريد ان تذهب معنــــا الى البلد .

ـ انا ! ولماذا ؟ اننى مستريح فى هذا المكان ولا احب العودة الى بلدتى ..

ـ ولكنك تعرف ماحدث .. وتعرف ان هناك بريئا فى السجن قد يشنقونه اذا لم تظهر ..

ـ وما ذنبى أنا فى هــــذا .. اننى لو عدت الى هنــاك فسأقتل

ـ لن يقتــــــلك احد ..

ـ كيف ؟ ومن يمنع محسن بك من ارتكاب هذه الجريمة ؟

— انك ستتقدم الى النيابة وتقول لها كل شىء فتقبض عليه فورا ولا يستطيع وهو فى سجنه ان يقتلك .

— واسرته انها قوية وذات نفوذ كبير .

— اسمع اننا ندفع لك عشرين جنيها لتذهب معنا وتعترف بالحقيقة اما اذا رفضت ..

— ماذا ؟

— اما اذا رفضت فسيلقى البوليس القبض عليك .

وقبل الرجل مكرها ان يعود وظل طوال الوقت صامتا لاينطق بحرف وحاولوا ان يستدرجوه الى الاعتراف بما حدث .. وكيف اتفقوا معه على أن يمثل دور القتيل لكنه رفض أن يقول شيئا ..

كان خائفا يترقب الموت . فلا الحكومة ولا القضاء ولاالمعلمون الالزاميون جميعهم بقادرين على أن ينقذوه من مصيره اذا اسرة محسن قتلته ..

وذهبوا به الى مقر وكيل النيابة واستاذنوا عليه فاذن بدخولهم ووقف الرجل امام وكيل النيابة قائلا . :

— انا محمد ابو حسين ..

وقال وكيل النيابة بعد أن أرسل بصره الى وجه هذا الواقف بين يديه :

— تشرفنا . . هل تامر بقهوة ام شاى ؟

وقال الرجل وقد زايلته اخر ذرة من الشجاعة .

— لاياسعادة البك انا محمد ابو حسين

— ومن تكون ياسيد محمد ابو حسين ؟

وتقدم معلم الالزامى من وكيل النيابة ليقول له :

— هذاهو الرجل المتهم بقتله عبد العظيم محمد الشلقامى

ـ كيـــف ؟ ..
ـ هى الحقيقة .. فالرجل لم يقتل ولكنه اجبر على ان يختفى
وذعر وكيل النيابة من هذا النبأ الذى ما توقعه قط .. ذعرا
شديدا وجرى فى خيـاله احتمال مضـــايقات له من وراء هـذا
الحادث المفاجىء ..
ـ جثــةمن اذن تلك التى عثروا عليهـــا ؟
من يدرى ربما كانت لقتيل من بلدة بعيـدة ؟

وجرى التحقيق مع محمد ابو حسين ولم يلبث ان اعترف
بكل شيء وقع وكان يرتعش من الخوف وهو يدلى باعترافه . .
وكثــيرا ما صرخ فــزعا حين يتمثل ما عسى أن يحل به من قتل
وتعـــــذيب ..
وجىء بالشاب محسن مقبوضا عليه .. وجاء وراءه حشد
كبير من اسرته ودخل شقيقه عمدة البندر على وكيل النيابة يلتمس
عونه وعطفه فانتهره وسبه سبا قبيحا .

وفى اول الامر لم يشأ محسن ان يعترف بشىء . فانكر انـه
حرض هذا الرجل على الاختفاء وكان اهله يقولون له ..

ـ لاتخف .. فليس عليك ذنب قط .. ولو انك اعتـرفت
فاية جريمة ارتكبتها ؟ القتيل قدعاد من منفاه والمعلم الالـزامى
ســيخرج من ســـجنه .

غير ان وكيل النيابة ظل يستدرجه حتى اعترف .. ولـما
سمع اهله بذلك سافر واحد منهم الى مصر فجاء بمحام كان من قبل
وزيرا ودفعوا له ثلاثمائة جنيها ..
وافرج عن عبد العظيم من سجنه . وعن زوجة محمد ابو
حسين .. ولم يكن عبد العظيم ليصدق شيئا من هذا الذى وقع

.. لم يكن يؤمن بحدوث هذه المعجزة التى القت امامه ضـــوءا اهتدى به من السجن الى طريق الحـــرية .

وجاءت اليه سناء قريبته .. تضحك وتبكى .. وتحمـد الله على نجاته .. أما أخوها فقد اعتقـــد جازما بأن عبـــد العظيم افرج عنه حين اصغى حارس السجن الى دفاعه عن تهمته .. عرف عبد العظيم جهد اخوانه الذى بذلوه وهو ملقى فى غيـاهب السجن .. ان اتحادهم فى محاولة انقاذه جعله يتخبط فى تفكيره فلا يدرى ما يقول .

انه لايملك ان يجزيهم مافعلوه شكرا ولاثناء .. فما قيمـــة هذه الكلمات التى ترددها جميع الالس فى وقت الاعتراف بالجميل

ولكن ماذا عسى ان يصنع ليؤدى لهم بعض الدين الــــذى اضافوه الى حسابه مشكورين ؟؟

انه لايدرى ماذا يصنع .. وكم تمنى ان يهتدى الى وسيلة فعالة يعبر بها عما يجول فى خاطره من حمد وتقدير .

وذكر سناء قريبته ، وكانت قد سافرت الى بلدتهم مسرورة ... وشد مارآعه ان لايجد قلبه وهو يخفق عنه ذكرها

أتراه لم يعد يحبها كما كان ؟ ..

انها فتاة طيبة .. وانا اعتبرها كاختى ..

وخيل اليه أنه أقنع نفسه بهذه الاكذوبة .. وان ليس ثمـة شيئا آخر أتراه يخدعها .. كلا انه لا يشعر نحوها بهذه العاطفة المقدسة التى تجعله يؤثرها عـلى نفسه ويتمنى أن يراها كما يرى شيخ المسن شبابه ..

وجاء اخوانه يحتفلون بعودته ولا يظهرون له شيئامما فعلوه .. على انه اراد ان يتحدث عن هذا الامر فقاطعوه .. وامســكوا

بتلابيب طائفة من الموضوعات الاخــرى ..

وقال ناظر المدرســـــة :

ــ لم لم تقل لى ان مامور السجن هو سعادة توحيد بـك رأفت ؟

وقال لهعبد العظيم وهو لايخفى ابتسامته:

ــ اهـــو صـــديقك أيضـــا ؟

ــ كلا .. لكنه قريب سعادة محمود بك عاكف صديقى ..

ولمـا هموا بالانصراف استبقى عبد العظيم واحــدا من زملائه وســـــأله همســـا :

ــ اين زينـــــات ؟

ونبدت الدهشة والأسى على وجه زميله ثم قال له :

ــ اما زلت تــذكرها ؟

وتجاهل عبد العظيم سؤاله ثم قال له :

ــ اين هى الان ؟

وابدى زميله علامة الذى لم يعد لديه مجهود اخر يبذله ثم قـــال :

ــ ســــافرت .

ــ ســافرت .. الى اين ؟

بعد ان وقع الذى وقع واحست اثر المصيبة حولها طـلبت ان تنقل الى دمياط وقد نجحت فى مسعاها ورحلت منذ ايام

ومضى عبد العظيم الى محطة سكة الحديدحتى وقف امام نافذة التذاكر وقال للمـــوظف :

ــ اعطنى من فضـــلك تذكرة .. تذكرة سفر الى دمياط .

كيف يثور الجيش على مولانا

وتوالت الايام على قرية الشيخ سند كما توالت عليها المحن والنكبات .

وفى وضح النهار وفى ظلمات الليل كان يترصد لأهلها المساكين غول بشع يفتك بهم ولا يكاد يطلقهم من قبضة يده . ولم تكن لهذا الغول اذنان يستمع بهما الى صرخات هؤلاء الاشقياء ولم يكن له قلب يضطرب بعواطف الرحمة والشفقة والرثاء ، ولكنه كان يبطش بضحاياه وهو يقهقه مسرورا ..

وكان صاحب السعادة يطلق سراح هذا الغول البشع فى كل يوم ليملا له خزانته بالمال وليروع الامنين بصرخاته المقيتة حتى لايفكر احد منهم أن يشكو أو يتوجع .

وكان عبد العظيم يصطدم كل يوم برؤية دم جديد .. دم الضحايا الابرياء الذين سمعوا عن اسطورة اسمها القانون ... فتبددت الاسطورة بين أيديهم وامتزج حطامها بدمائهم وكانوا يسمعون عن اسطورة اسمهاالعدل فلما ابتغوا الوصول اليها تراءت لهم كالسراب الخادع ، وكانوا يحسبون ان بلادهم هذه المسماة بمصر يحكمها رجال منزهون .. ومن ورائهم برلمان يحاسب أولئك الرجال المنزهين على أخطائهم ثم تبين لهم أنه لا يوجد بمصر سوى هذا الغول البشع الذى صنعه الاقطاع .. وان لا مهرب منه الا ان يلثموا قدميه ..

وجاءت ليلة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ والعالم يسبح فى بحار لاشواطىء لها من الفوضى والاضطراب .. ومصر ترقد على فراش من الشوك وتشاركها فى مخادعها افاعى الظلم والطغيان ..وقرية الشيخ سند يلفها الضباب بجلبابه الواسع .. ويحز الخوف فى قلوب بنيها فترتعد السنتهم فى حلوقهم خشية أن يصيب الكلب «لولو» مرض فيدفعون بعض ارواحهم ثمنا لشفائه ...

وفى مطلع النهار جلس صاحب السعادة فى ثيابه المنزلية غارقا فى طوفان من الشتائم البذيئة التى يوجهها فى كل صباح الى الخدم ليرفه بها عن نفسه ولينسى ما يلقاه من اهمال زوجته واحتقارها واصرارها على اذلاله . وبعد أن استمتع بهذه البذاءات جعل يصغى الى الراديو فاذا بالبكباشى انور السادات يقول فى صوت آثنين وعشرين مليونا من المصريين ..

« اجتازت مصر فترة عصيبة من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم ، وقد كان لهذه العوامل تاثير كبير على الجيش، وتسبب المغرضون والمرتشون فى هزيمة الجيش فى معركة حرب فلسطين » .

ومضى يعلن الثورة على ماهو معروف ..

وهز صاحب السعادة راسه غير مصدق ماسمع ..ايكون قد اصغى الى اذاعة بلد اجنبى غير مصر .. ؟ صحيح أن المسائل السياسية تعقدت بعد حريق القاهرة وقد سمع بتذمر الجيش ؟ ولكن كيف يمكن ان يصدق ماسمعه الان .؟

ومد يده الى المفتاح الذى يحدد مكان الاذاعة .. وراح يحركه فى غضب حتى اذاما اتم ضبطه على محطة مصر سمع هذا البيان يذاع مرة ثانية .. فضرب جبهته بكفه . وجعل ينقل قدميه ثم نادى الخدم وهو لايدرى لماذا ناداهم ؟. ولماذا تجمعوا من حوله وأحس أنفاسهم تلهب وجهه فصرخ فيهم :

— اخـــــــرجوا ..

وعاد يضرب كفا بكف ويحوقل ويتمتم .. أتكون هى الثورة؟ .. ثـــــورة .. ؟

واحسن انه لن يستطيع ان يواجه هذه المشكلات وحده . فارسل يستدعى اليه اقرب المثقفـــين ...

وحضر ناظر المدرسة .. ومدرسوها يخبون فى ملابســـهم الافرنجية ويمسحون بايديهم على وجوههم فلما انتهوا من السلام على صاحب السعادة ابتدرهم قائـــلا :

— هل سمعتم ماحـــدث ؟.. انه فظيع ..

وقال ناظر المدرسة وهو يفرغ مافى انفه فى جوف منـــديله الازرق :

— ماهو الذى حدث ياحضرة صاحب السعادة ؟ وما هـــو هذا الفظيع ياحضرة صاحب السعادة ؟

وقال عبـــد العظيـــم :

أما أنا فقد سمعت فى الراديو الذى فى متجر ابراهيم أبوسالم أن الثورة اشتعلت فى مصر ..

وارتجف صاحب السعادة غيظا وحيرة وخوفا ثم قال وهو يهم بالوقوف :

— ثورة .. ضد من هذه الثورة .. الجيش فى قبضة الملـــك فكيف يثور الجيش !!

— هذه ثورة ضد الملك ..

— كيف ..؟ ومن الجيش ؟.. كيف عرفت هـــذا

ووقف ناظر المدرسة وهو لايخفى حقده على عبد العظيم :

— نعم ... قل لنا كيف يثور الجيش على مولانا الملك حفظه الله ...

قال عبـــــد العظيـــــم :
ـ لقد اصغيت الى البيان فلم اجده يختتم بالدعاء للملك
كما هى عادة جميع الذين يتحدثون فى اى موضوع ..
وقال صاحب الســـعادة :
ـ وهل هذا دليل ؟ ربما نسى المتحدث ان يقول هذا ؟
ـ لاأظن انه نسى .. وهى الثورة دون ريب !
ـ ثورة .. ثورة من الجيش ؟
ـ هى ثورة الشـــــعب ..
واستبد الغضب بصاحب السعادة كما لو ان قرويا لطمـه
على خده .. ثم قال :
ـ تقول ثورة الشعب .. اين عقلك ياحضرة ..؟ هل الجيش
هـــو الشـــــعب ؟
وقـــال عبـــــد العظيـــــيم :
ـ نعم الجيش هو الشعب .. فمن اين جنوده وضباطه ؟
من كل مدينة .. من كل قرية .. ومن كل اسرة فى الشعب ..
ثم اطرق عبد العظيم وجعل يعبث باصابعه فى شعر راسه
ثم قــــــال :
ـ ان ثورة الجيش هى التى تفيـــــدنا فى حالنا هذه وهى
الثورة التى ستنجح .
وقال صـــاحب الســـعادة :
ـ اسمع لى ياحضرة .. ما اسم الاستاذ ؟ آه .. تذكرته ..
عبد الكريم فيمـــــا اظـــن ..
ويبادر ناظر المدرســـــة يصحح هـــــذا الاســـم :
ـ عبد العظيم ياحضرة صاحب السعادة .. الاستاذ عبـــد
العظيـــم الشـــلقامى ..

وقد سره ان يذكر هذا عسى ان يمتد غضب صاحب السعادة عليـه فينقله او يفصـــــله ..

وقـــال عبـــد العظيـــــيم :

— ان ثورة الجيش تحقق اهدافنا دون ان يشيع الفســاد فى الشعب .. فالجيش طاعة ونظام اما اذا ثار الشعب فان كل ما يحدث أن تسير المظاهرات فى هتافات مدوية .. وينطلق اللصوص والمفسدون يحطمون المصابيح ويحرقون مركبات الترام ويسلبون مافى المتاجر من متـــاع .. وبعد ساعة او ساعتين على الاكثـر يكون المتظاهرون قد تعبوا من الحركة ومن الهتافات ومن الزحام فينصرف كل واحد الى شـــانه ويقبض على فريق من المذنبيـن والابرياء ويجد نفر من المحامين الطامحين والمغرورين الفرصـــة السانحة لان تنشر الصحف اسماءهم كل يوم فيوزعون الابتسامات على مندوبى الصحف ويلتمسون ان تلتقط صورهم لتنشر فى امكنة ظاهرة .. وهكذا تنتهى الثورة التى نشبت لاكرم غاية .. وكـل مايفيده الشعب منها عدة عناوين تبرزها الصحف بالمــدادالاحمر

وقال صـــاحب الســـعادة :

— وعلام تنتهى ثورة الجيش .. ؟

— على خير ان شاء الله .. اننى لا أعلم شيئا عن هـــذه الثورة .. اكثر مما سمعت .. ولكن هؤلاء الناس اذا ابتغوا ان يحاربوا الفساد كما يقولون ســـيوفقون ..

— لماذا ؟ هل تطيـــق البلاد ان يحكمها الجيش ؟

— لم لاتطيق وقد ظللنا نحكم بالعدو الغاصب . ونحكم بحشود من الشركات المساهمة التى تسمى احزابا سياسية والتى لاتصل الى الحكم من طريق ارادة الشعب بل من طريق المناقصات والمزايدات مع العدو الغاصب ومع السراى . فاذا جلس هذا الحزب فى الحكم كانت له قبلتان يتجه اليهما فى صلواته .. دار الاحتلال ..وقصر

الملك .. ثم ينطلق الاقارب والمحسوبون والاذناب يعيثون فى الارض فسادا ويقترفون ابشع جرائم السرقة والافساد

وقال ناظر المدرسة :

ـ هذا تصوير خاطىء ...

وصرخ صاحب السعادة :

ـ انك معتوه .. تقول عن زعماء الامة هذا القول السخيف .. انا عضو فى مجلس الشيوخ فهل تتهمنى .. ؟

وقال عبد العظيم :

ـ انا لاأتهم احدا فى منزله ....

وتفرق الجميع دون تحية وكان على ظهر كل واحد منهم لوحا من الثلج .. وانصرف كل منهم الى خواطره .. وقداقسم ناظر المدرسة لنفسه ان عبد العظيم هذا شخص مقضى عليه

رحمتك يارب

مضت الثورة فى طريقها .. تهدم الفساد وتبنى الصالح ... وتزدرى اولئك الحمقى الذين يتصايحون كالدجاج .غارقين فى رذائلهم الوضيعة وملء قلوبهم غل وحقد . وملء افواههم تساؤل ونقد .. وملء ضمائرهم أطنان من القاذورات ..

وكانت أمنياتهم التى تنبح فى صدورهم .. تسبق الاشاعات التى يرسلونها فيلعقها الغافل الساذج .. ويروح يلوكها فى المجالس .. ويعينه على رواجها ماجورون يقسمون بالله جهد ايمانهم انهم رأوا الفيالق البريطانية تتحرك نحو القاهرة .. وقتل سبعة .. لابل خمسة عشر لابل تسعون ..

وقال عمدة القرية فى مجلس كبير فى قصر صاحب السعادة :

— هل تعتقدون ان عدلى للوم سيحكم عليه ؟

وقال شيخ القرية واسمه عبد الصمد الفرجانى .. وكان يحفظ القرآن كما يحفظ اسماء اللصوص الذين يتعامل معهم ويتستر عليهم .

— والعرب .. ؟ آلاف من العربان يتراصون حول عدلى للوم .. بلغنى ان اولئك العربان هددوا باحتلال القاهرة ؟

وتمنى صاحب السعادة ان يقول شيئا من هذا القبيل ... ولكن خوفه من العقاب الجمه وراح يستحث بنظراته الجالسين على ان ينفخوا بافواههم الدنسة فى نار الاشاعات عسى ان تنقلب الى حقائق .. عسى أن تشيع الفوضى والاضطرابات فى جنبات

الوادى وحاول ناظر المدرسة ان يلقى الى النار بقطعة من الحطب فتنجح وسعل ثم قال :

ـ سمعنا شيئا من هذا .. هؤلاء البدو اهل باس شديد

وكان يود ان يقول شيئا اشد وضوحا من هذا الذى قاله ليتملق صاحب السعادة ولكن الجبن وقف فى حلقه ينتقى له كلماته .. واستغرق فى خواطره فلم يوقظه سوى صوت عبد العظيم وهو يقول :

ـ ان اولئك الذين يروجون هذه الاشاعات التافهة تستقر عقولهم فى احذيتهم فلا يفهمون ماهى الثورة ..

وتريث قليلا ريثما يلتقط نفسا من سيجارته ومضى يحدق فى وجوه الحاضرين فاحسوا من ذلك التحديق رعبا حقيقيا كما لو انهم ضبطوا متلبسين بجريمة منكرة .. وراح كل منهم يتطلع الى جاره ليرى ما انتابه من ذعر وفزع ..

وبعد أن أشبع كبرياءه متلذذا برؤيتهم خائفين متوجسين راح يقول :

ـ ليست الثورة أمرا ملكيا يصدر باقالة فلان وتعيين فلان مكان فلان .. وليست هى تغييرا وزاريا ، تختفى من جرائه على المسرح وجوه وتبرز وجوه .. ولكن الثورة ثورة .. بركان يقذف بالحمم ويملأ الجو نارا .. والتعديل الوزارى يستطيع خادم الملك الخاص ان يبدل فيه مايشاء .. حين يهمس فى اذن صاحب الجلالة ضارعا متوسلا . اما البركان فلا يستطيع ان يوقف ثورته خادم الملك ولا الملك نفسه ولا خمس امبراطوريات مجتمعة

وتطلعوا اليه فى دهشة وكانه يقول احاجى والغاز ... واحس انهم لايفهمون شيئا مما يقول فانطلق يتحدث :

ـ اذا اختلف انسان وانسان على خمسة قروش . فانهما

خليقان ان يجلسا معا ليناقشا موضوع الخلاف فى هدوء ..وقد يغلظ احدهم فى القول فيصفح عنه رفيقه او يرد عليه بقول اشد غلظة وينتهى الامر أو لاينتهى ... فالخلاف على خمسة قروش لن يعرض على مجلس الامن . . اما اذا غضب رجل لعرضه ولكرامته ولحقوقه .. فلن يستطيع احد أن يناقشه فى هدوء ولن يقال له :

– تخل عن عرضك وعن كرامتك وعن حقوقك واجلس معنا لنتحدث فى دعة واطمئنان .. وتابع حديثه قائلا :

– فالثورة لا تخاف لانها اشتعلت لتبنى مجتمعا يسمو على الخوف .. لقد عشنا على الخوف عشرات السنين .. وكنا نخاف من أنفسنا ومن ابنائنا واصدقائنا ومن الماء الذى نشربه ومن الهواء الذى نستنشقه . وجاءت الثورة لتحررنا من الخوف .. وهؤلاء .. الغربان الذين يتراصون حول عدلى للوم .. اذا ذهبوا الى القاهرة ليحتلوها . فانالمارة فى شارع الموسكى قادرون على ان يبصقوا على هؤلاء الغربان فيغرقوهم . وسيحكم على عدلى للوم اذا كان مذنبا بما يستحقه من عقوبة رادعة ..

وخيم الصمت على المجلس . كما لو ان يدا من الحديد اطبقت على الافواه واعتقد كل منهم ان فى حديث عبد العظيم ثغرات يستطيع ان ينفذ منها الى توبيخه ودحض ما يقول ولكن الكلمات التى تدور فى خاطره رفضت ان تتجاوز الشفتين !

ان ما يقوله عبد العظيم حقيقة يسلمون بها ... ولكنها حقيقة لايحبونها ، فهم قد جاءوا الى هذا المجلس لارضاء صاحب السعادة وازجاء الاحاديث التى تسره .. وهو لايريد أن يعترف بان الجبل الشاهق من الطغيان والسلطان . يمكن ان يصبح فى غمضة عين قطعة من الحجر تلف فى منديل !

واجترأ مدرس باتزانه وخجله فقال :

ـ ولكنى ـ وقد اكون مخطئا ـ ارى ان الشعب يقف موقف الفرجة على الثورة فما هو السر فى ذلك ؟

وتحرك ناظر المدرسة فى جلسته وحاول ان يبتسم وهو يقول :

ـ نعم ماهو السر فى هذا ؟ كنت اود ان اسأل هذا السؤال لولا ان سبقنى اليه صديقى الاستاذ كمال الدين .

وقال عبد العظيم :

ـ ذلك لان رجال الثورة مثاليون .

وسكت ليرى اثر ماقاله فى وجوههم وكان يحلو له ان يعمد الى هذا الاسلوب فى امتحان سامعيه واصابتهم بالذهول فلما استمتع برؤيتهم كالفيران المذعورة مضى يقول :

ـ ماذا يريد الشعب من الثورة ؟ يريد ان يتحرر من كل قيد يربطه بواجبه فهو يحطم القوانين كلها ويجد اجمل لذاته فى أن يدمر كل شىء .. وفينا من شهد ثورات نشبت فى مصر فلماذا صنعته الثورة ؟ هتاف وتصفيق وحرائق وسلب ونهب .ثم لاشىء بعد ذلك سوى ان يحاكم الابرياء والمذنبون .. وتتثاءب الثورة وتتمطى لتاكل ابناءها ويبرز ناس لم يكن لهم فيها جهد ولاجهاد فيسمون الثورة بالوطنية الرشيدة . ويروحون يخطبون ويهذرون وبعد قليل .. ترى هؤلاء الدخلاء اصبحوا انصاف الهة وابطالا خالدين .. !!

وكان الجميع يصغون . والعواطف المتباينة تمزق قلوبهم . وكانت احقادهم على هذا المخلوق العبقرى تحاول ان تفسح لها مكانا الى حناجرهم فكانوا يبغضونه كما لو انه كان طاعونا ولكنهم مع ذلك يحبون ان يستمعوا اليه ..

وقال عبد العظيم .. :

— فالثورة التى نعيش فيها جاءت من طريق الجيش ..اى من طريق الطاعة والنظام وبذلك حرمت أولئك الظامئين الى التدمير والتخريب من متعة هذه التسلية البغيضة وبذلك وقف الشعب يلهو وهو يقضم اظافر اصابعه .. ويسال عما صنعت الثورة .. فانه مادام قد انسحب من الميدان الذى يحطمون فيه المصابيح ويخفون الاثواب الحريرية داخل ثيابهم ويجلسون على سطح عربات الترام يهتفون ويضحكون ويغازلون الفتيات .. تكون الثورة ضعيفة عاجزة ..

وقال شيخ القرية :

— ولكن ما الذى حققته الثورة ؟

واهتز ناظر المدرسة فى جلسته وكان يسعده أن يردد السؤال الذى يوجهه سواه فقال :

— صحيح .. ما الذى حققته الثورة ؟

وقال عبد العظيم :

— أن كل لسان يتحرك بين شدقين يمكنه ان يبدد امجاد العبقريات الانسانية كلها بمثل هذا السؤال .. ما الذى افدناه من الحضارة ؟ ما الذى افدناه من المدنية ؟ مافائدة الشمس ؟ ما فائدة أى شىء له أكبر فائدة فى تاريخ البشرية ؟ .. كيف يمكن ان يكون الجواب على اسئلة من هذا القبيل ؟ هل تحبون ان اتحدث اليكم عن فائدة الشمس والحضارة والمدنية .. الى اخره .. الى اخره ..

ان الذى حققته الثورة اعظم من ان يستطيع واحد او اكثر ان يحصيه . ويستطيع واحد منكم ان يلمس ما حققته الثورة باصابعه اذا كان ضميره غير مصاب بالخبل .. لاتؤاخذنى فى قسوة هذا التعبير .. ولكنها الثورة ثورة مصر كلها .. ثورة مئات الملايين من الاجيال القادمة .

ومضت بهم الاحاديث فىشتى الموضوعات وعاد الذين يتوجسون خيفة من الثورة يثنون عليها . فان سلطان الاقطاع الذى يمثله صاحب السعادة قد تلاشى وذكروا للثورة فضائل لم يـــكونوا منـــذ خمس دقائق يعترفون بوجودها وقال ناظر المدرســة .

ــ اما انا فقد قدمت طلبا بانضمامى لهيئة التحرير ..

وسرهم ان يخوضوا فى حديث .. كان جزاؤهم على الخوض فيه من قبل ان يقتلوا ان يصلبوا ان تقطع ايديهم وارجلهـــــم .. سرهم ان يحملقوا فى وجه صاحب السعادة وان يملا اذنيـــه بكلمات تمزق كبرياءه .. وتسيل دموع قلبه .. واعتبروا ذلك من خــــير ما اغدقتــــه عليهم الثـــورة

مصرع الأحرار

كان ثمة خيط دقيق واه من الامل يتراءى امام اعين خصوم الثورة من اذناب الاستعمار والرجعية ولصوص السياسة المحترفين والاقطاعيين فى ان يقع حادث ما .. انهم لايعرفون ـ على التحقيق ـ ماهو ؟ ولكنهم يتمنون ان يقع فيعود معبودهم فاروق من منفاه وتقذف السجون كل من حمل فوق كتفه جرائم تزن اضعاف مايزن جبل المقطم وتعود الصحف الشريفة الى التسبيح بحمد الوطنى الاول والمجاهد الأول وولى الله فاروق ..

وتعود مصر الى ماهو اتعس مما كانت عليه ، فالرشوة والفساد والظلم تصبح نجوما تضىء فى حياتنا الحالكة الطريق للانصار المحظوظين الى اختطاف كل ما يمكن أن يختطفوه من الاقوات والارزاق ..

لكن هذا الخيط الواهى من الامل قطعته الثورة بضربة من اصبعها فهى قد قضت على فاروق وعلى الاقطاع وعلى الاستعمار ولم يعد قادرا على ان يطل برأسه من جحره سوى أولئك الذين غبروا اقدامهم بتشييع جثمان هذا الفساد وعادوا من الجنازة ليتسلوا بالحديث عن الموت والموتى .

وكان للريف فى مصر نصيبه من كفاح الثورة فى الهدم والبناء فهذه البقاع النائية التى تحمل فوق كاهلها وثيقة الظلم والقسوة والاستبداد منذ الاف السنين تسرب اليها نور الاصلاح الزراعى وأصبح الاقطاعيون الذين كانوا الهة جبارين فى الارض مجرد رموز لماض دنس ..

واستيقظ القرويون ليستقبلوا هذا النور وأيديهم علـــى عيونهم ، فهذا الذى عاش فى الظلام عشرات الاعوام لما خـــرج الى الدنيا بهره ضوء الشمس وانه ليحب ان يستـــمتع برؤياه ، ولكن عينيه لاتقويان على تحقيق امنيته ، واهتبل الاقطاعيـــون والمنتفعون من فساد الاحزاب المنقرضة ،هذه الفرصة فمشـــوا بالاراجيف يدقون بمخلبها على كل بـــاب .

وقال على بهجت الذى كان صاحب الســـعادة من قبل :

ـ وددت ان اعرف كم من ابناء هذه المنطقة يمكن ان يفيدوا من تفتيت الملـكيات الـكبيرة .

وقال موظف مفصول فى حركة التطهير :

ـ نعم وودت ان اعرف هؤلاء المستفيدين من تفتيت الملكيات الكبيرة عشرة .. عشرون ، بعد ذلك يبقى الوف والوف مـــن الصعاليك الذين ترقد أمانيهم تحت أحذية السعداء المحظوظين ..

وكان فى المجـــلس نائب رئيس ســـابق فقال :

ـ ليست المسالة كما يتصور هؤلاء السادة من قادة الثورة .. اسمحوا لى أنا لااطعن فى احد ، ولكن الذين يسمون بالاقطاعيين كانوا قادرين على زراعة مساحات واسعة من الارض ، اما اذاوزعت هذه الارض على مئات من صغار الزراع فقدت قيمتهـــا وهذا رأى الاخصائيين العـــالميين .

واستند بظهره الى مقعـــده وخيـــل اليـــه انه بهذا الرأى الحـــاسم قد اصدر حكما يخـــلد مع الايـــام .

وقال شيخ بلد سابق حاول جاهدا أن يقنع ولاة الشـــأن بأنه غير مرتش فلم يصدقوه :

ـ الناس قد ضجت من الغلاء وتوزيع الاراضى على المعدمـــين لايفيد ، خذوها كلمة منى .. هؤلاء الناس . يقصد رجـــال الثورة . يصدقون كل كلمة تقال عن مواطن شريف .

وتمنى أن يشير الناس جميعا اليه على انه هو المواطن الشريف ..

وجرى الهمس بين الحاضرين فيما اذا كان عبد العظيم يستطيع ان يدفع هذه الهجمات فانه قد ندب نفسه لهذه المهمة وتوقعوا أن يلوذ بالصمت فانهم لم يكونوا يريدون أن يصغوا الى مناقشات يشتد فيها الحرج وتضيق معها النفوس

وعلى ان عبد العظيم كان يدرك ماوراء هذه الكلمات التى تبدو فى مظهرها معقولة متزنة ولكنها تنطوى على رغائب حسيسة فى اشاعة القلق والاضطراب فى نفوس القرويين :

وقال عبد العظيم :

— اننى لست اخصائيا زراعيا اخوض فى هذه المسائل الدقيقة .. ولكننى اعلم ان من امجد ما صنعته الثورة القضاء على الاقطاع ..

وصاح على بهجت باشا مهتاجا :

آه ...

ومد يديه أمامه وهم بالوقوف كما لو أنه يريد أن يشتبك فى معركة .. كما لو أنه ما يزال قادرا على أن يشنق أولئك الذين يخالفونه فى الراى .. وفجأة ابتردت نيران غضبنه وتخاذل فى جلسته فراح يفتش فى جيوبه عن علبة سجايره ابتغاء ان يهدىء من ثورة أعصابه ، ولما استقر فى مقعده اكتفى بأن يقول فى صوت هادىء لايتفق وصرخته التىأراد ان يفزع بها عبد العظيم :

— ماذا تقول ؟ آه .. ماذا تقول ياحضرة ..

وقال عبد العظيم :

ـ انني لااريد ان اسيء اليك بالتحدث عن الاقطاع فانت ـ هكذا دون ان يقول له سعادتك ـ لست مسئولا عن هذا الوحش الذى عاش آلاف السنين على دماء مئات الملايين من المصريين ، فالاقطاع فى أية أمة من الامم هو المسئول عن تأخرها وانحطاطها اذا اننا نعرف كيف استولى الاقطاعيون على مايملكون ..استولوا عليه بالقوة الغاشمة وبالارهاب والخديعة وظلوا فى عنفوان طغيانهم يدوسون باقدامهم ما تلطفوا وسموه بالحشرات وهم يعنون دون ريب هؤلاء الادميين الضعفاء المساكين الذين لاتفكر الدولة فيهم الا حين تجرى احصاء عاما عن عدد المواطنين .

وامتلأ المكان بهذا المزيج العجيب من التهيب والخجل والاستفزاز والخوف وجعل كل جالس يسرى عن نفسه باصطناع التثاؤب او التطلع الى جاره وحاول غير واحد أن يغير من موضوع المناقشة التى لا يعلم الا الله كيف تجىء نهايتها غير أن أصحاب هذه المحاولات خنقوها قبل ان تبرز الى الوجود .

وعاد عبد العظيم يقول :

ـ فهذه البدعة الجديدة التى يرادلها الرواج ، بدعة الخوف من تفتيت الملكيات الكبيرة تبدو تافهة لان هذه الملكيات الكبيرة فتتت على أيدى أصحابها ، فهم لم يكونوا يزرعونها بأنفسهم ولكنهم يؤجرونها لصغار الزراع ، والاقطاعيون لاتقتصر شرورهم على امتلاك مساحات واسعة من الارض على حين تظل الملايين من الناس لايملكون شيئا سوى اجسادهم ، ولكنهم كذلك ـ اعنى الاقطاعيين ـ يمثلون الفساد الاقتصادى والاجتماعى والسياسى فى ابشع صوره حين يسيطرون على الارض ويسخرون الاجراء فى خدمة اغراضهم ويوحدون هذا التفاوت المروع بين الطبقات ويتصرفون فى الحياة السياسية كما يشتهون ، هل سمعتم عن حكاية عبد المنعم ؟

وقال شاب الزامى :

— لا .. ما سمعناها .

— ان عبدالمنعم هذا فتى مدلل من اسرة اقطاعية مخيفة، وذات يوم نادى على خادمه فتهاون الخادم قليلا فى تلبية ندائه، ولما وقف بين يديه لم يشتمه ولم ينهره بل صوب اليه مسدسه واطلقه عليه ومات الخادم وبلغ الامر الى البوليس ان القتيل كان يعبث بمسدس سيده عبد المنعم فانطلقت منه رصاصة ازهقت روحه .

وكان عميد الاسرة يتجول فى اراضيه الواسعة فلما حضر وعرف الحكاية غضب غضبا شديدا وطلب ان يستعيد البلاغ المقدم الى البوليس ليكتبوا فيه ان عبد المنعم كان هو الذى يعبث بالمسدس فاصاب الخادم . نعم .. فان لعبد المنعم عبيدا كثيرين جىء بواحد منهم ولقن بان يقول امام البوليس وامام النيابة وامام القضاء بان المسدس ملكه هو ولكن القضاء — رغم اعترافه — قضى ببراءته ، فقد عز عليه ان يصدق ان لعبد رقيق حق امتلاك مسدس ..

وهل تعرفون قصة المحضر الذى قتل ؟

ذهب المحضر من المحكمة ليوقع حجزا على بعض ما يملكه اقطاعى ، فطلبوا منه ان لايفعل ولكنه كان مجبرا على ان يؤدى واجبه فلما تبينوا اصراره على تنفيذ ما اعتزم قتلوه ودفنوه فى الارض التى كان ينوى ان يوقع الحجز عليها ، ولم تستطع الحكومة ولم يستطع القانون ولم يستطع اثنان وعشرون مليونا من المصريين ان يصنعوا شيئا وذهب دم الموظف البرىء هدرا .

وهل سمعتم عن وكيل وزارة الاوقاف الذى لقى فى احدى الحفلات فى القاهرة اقطاعيا كبيرا فجعل يتوسل اليه ان يدفع الى الوزارة شيئا من اجر مائتى فدان يستاجرها منها .. توسل

ان يدفع ضريبة هذه الاطيان فقط والاقطاعى الكبير يهز راسه قائلا :

ـ لا .. تعالوا فخذوها .

ووزارة الاوقاف لاتقوى على ان تاخذها منه لانها لاتجد مستاجر سواه وأى انسان يحاول استئجار هذه الاطيان يقتل هو واولاده وجميع أهله .

هذه ذرة من رمال جبل الاقطاع الذى تمت معجزة الخلاص منه على يد الثورة ، فهل بعد هذا يمكن المخلوق فى مصر ان يفتح فمه بالاحتجاج على زواله ..

وقال النائب المحترم ..

ـ لا .. اسمح لى .. انك تعالج الامر من زاوية ضيقة ، اسمح لى ، ان هذه انك تعالج الامر من زاوية ضيقة ، اسمح لى .. ان هذه أمثلة فردية لا يصح أن تؤخذ قياسا للمجموع .. لاتقاطعنى من فضلك ..

ولم يكن عبد العظيم قد قاطعه او اظهر مايدل على اعتزامه مقاطعته .. ولكن النائب السابق كان يحس ان عيونا خفية تحملق فيه ، وكان يحاول ان يبدو هادئا رزينا ولكن اعصابه المضطربة تخونه ثم واصل حديثه :

ـ لقد قالوا عن فاروق انه رأس الاقطاع ، وكان فاروق يسرق ويسمح لغيره بان يسرق معه ، ولكن انظر الى الحالة المالية الان .. ان الناس لايجدون مایاکلونه .. اسمح لى .. الناس لايجدون ما ياكلونه ..

حتى صاحب السعادة غضب من هذا النائب السابق الذى اراد ان يدافع عن الاقطاع فحطم له قرنيه .. وامتعض الكثير من

الجالسين فانهم لم يكونوا يحبون لعبد العظيم ان ينتصر وهـا هو ذا النائب السابق يضع على مفرقه تاج النصـر .

وقال عبـد العظيـم :

— اننى راض عن كل ماقلته فى الدفاع عن الاقطاع .. ولكن اسمح لى انت ايضا . هل كان فاروق يسرق ؟ ومن هو فاروق . اهو زعيم عصـابة لخطف الرجال تكمن فى الجبل ، انه حـاكم البـلاد ، فاذا سرق كانت البلاد كلها لصوصا .. اليس المثل يقول : الناس عى دين ملوكهم .

وتابع حـديثه قائـلا :

— وهل كان يسرق فقط ؟ كان يختلى بأفراد حاشـيته ومـع كل فرد زوجـة فرد آخر ، ويأمرهم أن يقترفوا من الموبقـات ما يتوزع من اقترافه أحط الناس شأنا ، ويقف جلالته ليشرف على هذه المشـاهد المخزية ويلتقط لها شريطا سينمائيا .. وهـل تحسـبون انه كان يدخر هذه الشرائط السينمائية الداعـرة ليستمتع بإثارة غرائزه الدنيا ؟ كلا .. ولكنه كان يبيعها بالوف الجنيهات لبعض الامراء الشرقيـين .

هل كان هذا المخلوق ملكا او حيـوانا ؟

وامتلأ جو المجلس بهذه الكلمات التى لا تتميزها قط ولكنها تعبر اكمل تعبير عن مختلف المشاعر والاحاسيس حروف وكلمات تسبح فى الفضاء وكل واحد يحاول ان يحمل جليسه على ان يصغى اليه ويقنع بما يقول ، ولكن جليسه ينصرف عنه الى جليس اخر يريد ان يدخل فى ذهنه كـومة من الاراء ..

وتحدث عبد العظيم قائـلا :

— هل كان فاروق مجنونا ؟.. ان يده لم تمتد الى خير قط ، ولسـانه لم ينطق بكلمة طيبة وقلبه لم يهدف الى صنع المعروف

انه طراز بشع من الحيوانات والخسة والاقذار ..

هل سمعتم عن حكاية الوزير السابق معه ؟

رجل صعيدى موفور الوقار والتزمت ، يزحف الى الحلقة الثامنة من عمره ، وذات يوم نبتت فى راس فاروق نزوة تافهة فاعرب عن رغبته فى ان يعين الوزير السابق رئيسا لديوانه وكانت الظروف السياسية اشد تعقيداً من نظرية النسبية لاينشتين ، فاستدعى هذا الرجل المتزمت الى مقابلة صاحب الجلالة فى موعد حددوه ، وارتدى الرجل ثيابا رسمية تثقل بدنه الناحل وقبيل الموعد المحدد كان يجلس فى غرفة الانتظار ويده تحت ذقنه .

وجاء اليه من يقول : ان مولانا يطلب منك ان تذهب اليه ، ثم اخذوه الى حدائق قصر عابدين وهناك وقفوا به على الحمام الملكى .

كان صاحب الجلالة عاريا كما ولدته امه وكان يحاول فى اسلوب فاروقى فظ ان يفترس امراة عارية مثله على مرأى من المتفرجين ، واقترب المدعو كريم ثابت من الوزير السابق يقول له :

ــ مولانا يقول لك انه يحسن ان تخلع ثيابك للاستحمام معنا

واعتذر الرجل فى ادب بالغ بان حالته الصحية قد لاتتيح له الظفر بشرف الاستحمام مع صاحب الجلالة .

وغاب المدعو كريم ثابت قليلا ، ثم جاء الى الوزير السابق يقول له :

ــ مولانا يقول لك انه اختارك رئيسا للديوان الملكى .

واجتاحت نفس الرجل عاصفة من الاشمئزاز والخوف وتمتم يضع كلمات يعبر فيها عن اعتذاره من عدم استطاعته قبول هذا المنصب الجليل الشأن فان سنه وصحته لايمكن ان تساعداه على خدمة مولاه ..

وذهب كريم ثابت ليبلغ الى صاحب الجلالة هذا الاعتذار المهذب الرقيق ثم عاد اليه بعد قليل يقول له :

– مولانا يقول لك .. أمك ..

قالها له صريحة مكشوفة ، فانه لم يكن يستطيع ان يبلغ النطق الملكى الكريم . محرفا .

والتفت عبد العظيم الى جاره .. وكان زميلا مثقفا فابتسم له وتابع حديثه :

– هذا فاروق راس الاقطاع اما الاصلاح الزراعى فانه يشيع فى الريف المصرى روح التعاون ويقضى على هذه الفوارق الفظيعة بين الطبقات وياخذ بايدى القرويين .. الخارجين من ظلمات الماضى فيبصرهم بمواقع اقدامهم ، وليست مهمة الاصلاح الزراعى ان يعطى كل قروى خمسة افدنة ، فانه ليس بساحر محترف يخرج من طربوشه الفراريج ولكنه يقضى على مكامن الخوف والفزع فى نفوس الاهلين ، ويدفع عنهم ماهو شر من ذلك .. يدفع عنهم العبودية فى أحط صورها لملاك الارض المترفين .

وساله نائب سابق :

– بودى ان اعرف .. فيم حماستك للثورة وانت بعيد عنها؟

وقال عبد العظيم :

– لأننى مصرى لا أكثر فلست امتدح رجال الثورة لأفيد من ورائهم خيرا ، ولو انهم فعلوا لابغضتهم ولكن كل مصرى مخلص لوطنه يجب ان يسير فى موكب الثورة .

وتريث قليلا ريثما يشعل سيجارته ثم قال .

– ولا تنسى اننى معلم الزامى .. وأشد الناس عداوة للتعليم فى القرية هم الاقطاعيون ، فمن واجب كل معلم الزامى ان يكافح

فى سبيل الثورة جهد طاقته . لانها هى ألتى خلصت من عـدوه الألد .. الاقطاع ..

وسال احـد الحاضرين :

ـ ومن اين جئت بهذه الانباء ولم تغادر هذه القرية ؟

وضحك عبد العظيم قبل ان يقول :

ـ عصفور صغير همس بها فى اذنى .. من أين جئت بهـذه الانبـــــاء ؟

اترانى احدثكم عن الثـــورة فى روســـيا ؟ ان احد الزملاء حضر الى البندر ولقيته وحادثنى طويلا ، ومع ذلك فاننا ننسى عادة كل ماضينا وننسى ماحدث فى عهد فاروق الطاغية وما صنعه بنا الاقطـــــاع .

وانصرف الحاضرون الى بيوتهم وبقى صاحب السعادة وفى صدره نار مشبوبة .. أسفا على ما مضى وغضبا على هـــذا العهد الذى ســـلبه كل شىء حتى مجرد اغتيال حياة من يقف فـــى طـــريقه !

نهاية قصة

ظلت قرية الشيخ سند تستيقظ كعادتها فى صباح كل يوم .. ولكن العيون التى كانت لاترى فى وضح النهار سوى ظلام الظلم والطغيان .. اضحت ترى نور العدالة والانصاف والقلوب التى يملاها الهم .. والقلق والخوف امست عامرة بالرجاء فى أن تهون صعابها وتتبدد مع ضباب الاستبداد ..

وقال عبد السميع ابو راجية ماترجمته :

ــ الان استطيع ان اقول كل مايدور فى نفسى .. هل تظن ان هذا الرجل .. يقصد صاحب السعادة ــ قادر على ان يمنعنى من ان استاجر اطيان الخواجة انسطاسى ؟

وقال الشيخ عبد الوارث حصير وهو ماذون شرعى ومفتى القرية :

ــ الله ورسوله أعلم .. ولكننى أعتقد أن الامور لم تتضح بعد ..

كان منافقا كبيرا .. وكانت الحيرة تستبد به .. أيبقى على ولائه لصاحب السعادة فربما استرد نفوذه وسلطانه ؟ أم يندفع مع هذه الخلائق الثائرة ضده ؟

كان قد تعلم قليلا فبرز على هؤلاء القرويين . وكانت ثقافته المحدودة سبب حيرته التى يعانيها فانه يحس ضعفه وهوانه وصرخ عبد السميع فى وجهه :

ــ أية أمور هذه التى لم تتضح بعد يا مولانا ؟ لم يعد صاحبك

«باشا» ولم يعد يملك ستة آلاف فدان .. ورئيس حزبه الذى كان يستمد منه طغيانه أصبحت أنا أفضل منه مائة مرة .

ثم ربت على كتفيه بيده وقال له :

أم تراك خائفا على الفدانين اللذين تستأجرهما من سعادته بتراب الفلوس ؟

وانتفض الشيخ عبد الوارث غضبا ثم راح يقول :

ـ أنا .. أنا .. أنت الذى تقول لى هذا الكلام وقد رأيتك تقبل حذاء صاحب السعادة ؟

ـ قبلت حذاءه لانه كان يريد أن يقتلنى .. ولماذا كان يريد أن يقتلنى ؟ لاننى ضحكت حين كان عبد الباسط أبو عويضة يتحدث عن زوجته .

وامتلأت القرية بعد ذلك بالحكايات المثيرة والاشاعات العجيبة .. وكان الذين لا يعرفون شيئا على الاطلاق يتحدثون والذين يعرفون كل شىء لا يتحدثون .

ولم يكن أمر صاحب السعادة واضحا فى عقول أهل القرية.. فربما استطاع أن يخدع الثورة وينفخ فى بوقها ويتسلق العربة الاخيرة فى موكبها .. فهؤلاء «الكبارات» لا يدرى أحد كيف ينفذون من سم الخياط وهم أشد ضخامة من الفيلة ؟ واذن فمن الخير أن يصانعوه . اذ ربما عاد اليه نفوذه وهو قادر على أن ينكل بأهل القرية جميعا .

غير أن الشياطين فى القرية بدأت تهمس فى آذان أولئك الذين اضطهدوا وعذبوا وأسىء اليهم . ان جاء وقت الانتقام .. وما من شىء يثير القروى ويهوى بوقاره الى الوحل كالاخذ بأسباب الانتقام من عدوه .. فانه يبدد ثروته كلها وقد يبدد حياته فى سبيل أن أن يستوى جالسا على الارض ليروى قصة انتصاره .

وانتفض عوضين فى غمضة عين فاذا هو مثلى ومثلك عاقل واسع الحيلة وكان يتصنع الجنون وقد ذهب الى النيابة وروى لها حادث مقتل ولده للحارس الواقف على الباب .. ورواه للموظف المشغول بقيد الجرائم ورواه لوكيل النيابة .. وكان شابا موهوبا فأصغى اليه وأحب أن يبدأ عمله فى هذه المنطقة بتحقيق هـــذه الجريمة المروعة .

ورجع عوضين الى قرية الشيخ سند يحكى قصته مع وكيل النيابة الذى قدم اليه القهوة وأشعل سيجارة .. هكذا والله .. قام من كرسيه وقدم لى سيجارة ثم أخرج عودا من الثقـــاب وأشعله !

وركض عمدة القرية الى صاحب السعادة وقلبه يدمى ، واتفقا على أن يرشوا عوضين وجىء به الى القصر فدخله منتفخ الاوداج كما لو أنه موسولينى يزور صانعا فاشيستيا وقال له صاحب السعادة وهو يكاد ينحنى على يده فيقبلها :

ــ اسمع يا عم الشيخ عوضين .. انت رجل طيب ولا تريد أن تخرب بيتى .. ان ولدك قد مات قضاء من الله . فماذا يفيدك اذا سجنوا ولدى ممدوح ؟

وضحك عوضين حتى دمعت عيناه وقال :

ــ اخرب بيتك .. ها .. ها .. هــا هــا ولكنك انت خربت بيتى !!

ــ هذا قدر الله يا عم الشيخ عوضين وقضاؤه .. هل كنت أعلم شيئا عن هذا الحادث ؟

وقال عوضين :

ــ ولم لا ينزل بك أنت قدر الله وقضاؤه ؟

وضحك ثم تمثل لعينيه ولده الحبيب وراح يبكى .. وانتهوا من هذه المقدمات الاليمة بأن صاحب السعادة على استعداد لأن يدفع ألف جنيه ..

ـ وصرخ عوضين :

ـ ألف جنيه .. أقبض ثمن ولدى .. وحيدى ؟

وبلغ الرقم فى المساء عشرة آلاف جنيه .. ولكن عوضين رفض .. وان كان قد لان قلبه وجعل يفكر فى ان ولده لن يعود اليه .. فماذا يحدث لو انه قبض هذا المبلغ ؟ ..

وأحس صاحب السعادة ان ضحيته قد اقترب من قلبه الطمع وعز عليه أن يبذل هذا القدر من المال ولكن ماذا عساه صانعا .. أيدع ولده يسجن ؟

واتفقا على اللقاء فى اليوم التالى .

وفى المساء اجتمع ناظر المدرسة ومدرسوها فى القصر وقال صاحب السعادة :

ـ هل سمعتم أحدث الانباء ؟

وبادر ناظر المدرسة بقوله :

ـ أية أنباء يا صاحب السعادة ؟

وقال صاحب السعادة :

ـ رجال الثورة مختلفون فيما بينهم اختلافا شديدا ..

ـ هذه اشاعة خائنة .. ان رجال الثورة يعلمون جيدا ان مصير هذا البلد كله فى أيديهم .. ولو ان هذه الايدى تراخت أو اختلفت لما عاد الامر أمر أرواح بضعة عشر رجلا تزهق .. بل أمر اثنين وعشرين مليونا يغرقون فى أوحال العبودية الى الابد .

وتحدث بعض من فى المجلس عن أكاذيب أخرى ولكن عبد العظيم لم يلتفت الى ما قيل وتابع حديثه قائلا :

— هذه الترهات المسمومة يقذفبها خصوم مصر من المستعمرين والصهيونيين وأصحاب المبادىء الهدامة والاقطاعيين ولا مؤاخذة يا صاحب السعادة . ورجال الاحزاب البائدة واللصوص والمفسدين والاذناب .. ومن كان يربح من وراء الاستغلال الدنس ...

وقال صاحب السعادة :

— اسمح لى .. هذه هى المرة الثانية التى تشتمنى فى وجهى هل أنا اقطاعى ؟

وقال عبد العظيم :

— أنا لا أقصد أن أشتمك .. ولكن يجب أن نؤمن بأن هذه الثورة ليست ثورة من قام بها من الضباط الاحرار .. بل هى ثورة مصر كلها .. ما الذى جعل هذه الاشاعات تدب من جحورها .. ولمصلحة من نحاول ان نخنق أرواحنا بأيدينا ؟ ما هو الشر الذى اقترفه رجال الثورة .. ان رجال الثورة يعملون ثمانى عشرة ساعة فى اليوم ليسبقوا الزمن فى النهوض بهذا الشعب التعس .. ما الذى أفاده جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وأنور السادات وحسين الشافعى وكمال الدين حسين وعبد اللطيف البغدادى وزكريا محيى الدين من كفاحهم الشاق المرير ؟

أراهن على أن الواحد منهم لا يفكر فى شراء كسوة جديدة الا بعد أن يحصي على أصابع يده ما فى جيبه من مال سبع مرات ..

وأين أخوة هؤلاء الرجال وأقاربهم وأصهارهم ؟ انهم فى أماكنهم التى كانوا فيها لم يتعدوها .

وماذا كان يحدث لو أن واحدا من رجال الثورة وثب الى قصر

من قصور فاروق وعاش فيه أوفر متعة وأعظم ترفا مما يروى عن هارون الرشيد ؟

وأراهن مرة أخرى على ان المقاعد المحطمة التى فى منازلهم لاتزال كما هى لم تتغير .. أية عفة وأية نزاهة يمكن ان يبغيها شعب من قادته أسمى من هذه العفة وهذه النزاهة .

وقال صاحب السعادة :

ـ جمال عبد الناصر .. أنا ما سمعت عن هذا الاسم شيئا من قبل ..

وقال عبد العظيم :

ـ ولكنك سمعت عن تهامى معارك .. وعن حسن يس .. وعن عبد العظيم وعن جعفر ابو العينين سمعت عن الاقزام ولكنك لم تسمع عن العملاق فماذا يضيره ؟

ان التاريخ الصادق تلقف اسم جمال عبد الناصر وأصر على ان يكتبه بخط يده منذ أول يوم من أيام الثورة ـ وسيروى التاريخ سيرة شاب لا أدرى كيف جاء من مصر ؟

وقال صاحب السعادة :

ـ أهو غنى ؟

فقال عبد العظيم :

ـ بل هو فقير من أسرة فقيرة .. ولكن رباط حذائه أعظم شأنا من ملايين الذهب التى تملكها أمريكا ..

وقال صاحب السعادة وناظر المدرسة فى نفس واحد :

ـ كيف

ـ جمال عبد الناصر وهو مدبر هذه الثورة منذ سنوات .. وهو

الذى أتاح لها بايمانه وصبره وحكمته أن تمضى الى غايتها دون ان يفشو خائن سرها ..

وقد مضى على الثورة بضعة شهوز ــ فنسينا بالطبع كما هى عادتنا ــ عهد فاروق الملطخ بقاذر الدنايا وكيف كان الواحد منا يلقى أخاه ويحاول ان يفضى اليه بنبأ من أنباء فضائح فاروق .. فيميل بفمه على أذن صاحبه .. ثم يحرك شفتيه دون أن ينطق بحرف .. فيهز صاحبه رأسه دلالة على انه استوعب كل ما يريد أن يقوله ..

فى هذا الجو البغيض الخانق نبتت الثورة فى قلب جمال عبد الناصر .. ثم غرسها فى قلوب فتية أخلصوا لربهم ولوطنهم .. ولو ان قلبا واحدا من قلوب هؤلاء ــ لا قدر الله ــ ضاق بغرسه لرأيت مولانا الفاروق العظيم ينصب المشانق بيديه الكريمتين ..

وسأل ناظر المدرسة :

ــ ماذا صنعت الثورة ؟ قل لى بالله عليك ماذا صنعت ؟

ومسح بيده على وجهه وهو يحاول أن يتملق بسؤاله هذا صاحب السعادة ..

وقال مدرس شاب اسمه عبد العزيز حسنين :

ــ صنعت كل شىء .. يا حضرة الناظر اسمح لى .. الثورة لا مؤاخذة يا سعادة الباشا .. هل يمكن أن ينكر أحد ما صنعته الثورة فى بضعة شهور ؟

ونظر الحاضرون الى المدرس الشاب نظرة من يقول ليس هذا مجالك .

وقال عبد العظيم :

ـ صنعت الثورة كل ما هو مطلوب منها .. أو على الاصح كل ما طلبته من نفسها .. لا يقال للثورة ماذا صنعت لانها لا تتحدث عن فضائلها .. وتحطم فى طريقها كل من يعترضها ... والثورة هى نهاية الغضب ، هى نهاية غضبة الحليم .. أو بمعنى أصح انفجار بركان الغضب ، والثورة لا تخطىء أبدا ، وما حققته الثورة فى بضعة شهور .. هو ما عجزت مصر عن تحقيقه منذ خمسة آلاف سنة .. لقد كان طرد فاروق الطاغية أهون عمل قامت به الثورة .. مع أن ذلك حلم راود المصريين جميعا وأيقنوا استحالة تصور وقوعه .. ثم حددت الملكية الزراعية وألغت الالقاب .. وطهرت الاداة الحكومية من كثير من اللصوص ... وأفسحت المجال والنشاط الاقتصادى فى حشد المشروعات التى كان ساستنا المحترفون ينفذونها على الورق .. وأعظم من ذلك كله أن حاكمينا اليوم مصريون .

وفتح ناظر المدرسة فمه ليعقب على هذا الكلام .. ولكن ماذا عساه يقول ؟

***

وقع فى القرية حادث جعل أهلها جميعا يقفون أمامه حيارى مذهولين ، فان رجلا من أسرة العمدة يملك جانبا من الاطيان وكان له فى الماضى على القرويين سيطرة ونفوذ وفى ظل جاهه وسلطانه نشأ عبد الحليم وهو طفل يتيم كانت أمه تعمل خادما فى منزل قريب العمدة هذا بعد أن قتل أبوه فى موقعة رهيبة ونشأ هذا الوليد على شرعه الخضوع المطلق لرب الاسرة التى يستمدسطوته من قريبه العمدة ويستمد العمدة سطوته من صاحب السعادة على بهجت باشا .

ولما بلغ أشده واستوى عوده راح يعمل أجيرا فى زراعة قريب العمدة هذا وكان راضيا عن حياته الذليلة اذ أنه لن يجد خيرا سواها أو خيرا منها ، ولم يكن يجرؤ على أن يرفع عينيه فى وجه سيده حين ينهال عليه ضربا بالعصا بسبب هفوة اقترفها أو لغير

سبب على الاطلاق ، الا أنه حدث فى يوم من الايام أن انتهر قريبه العمدة هذا الشاب المسمى عبد الحليم وهم بأن يضربه فلم يبد خاضعا خانعا كما هو دأبه بل وقف أمام سيده وقفة الند للند وصاح فيه بصوت لا يدرى هو كيف واتته شجاعته على أن يصيح به :

— لا تضربنى .. انك ان ضربتنى ضربتك .

واهتاج قريب العمدة هذا وركبته شياطين الارض كلها وهو يرى ربيبه وعبده يتطاول عليه ويقف منه وقفة السيد أمام السيد فأهوى على ظهره بالعصا غير أن عبد الحليم الشاب القوى الممتلىء استطاع أن ينتزع العصا منه وأن يضربه بها حتى سقط مغشيا عليه .

وفوجىء أهل القرية بهذا الحادث العجيب مفاجأة كانت شديدة الوقع عليهم ، فانهم كانوا حديثى عهد بالتحرر من قيود العبودية التى فرضت عليهم وعلى آبائهم وعلى أجدادهم منذ مئات السنين واختلفت مشاعرهم وأحاسيسهم اختلافا شديدا من تصور وقوع حادث كهذا على أن الكثيرين منهم طردوا عنهم الخوف والفزع وراحوا يفكرون فى الامر على أنه مجرد اظهار لمزايا الحياة الجديدة التى منحتهم اياها الثورة .

انهم اليوم ليسوا عبيدا لاحد ولا لصاحب السعادة نفسه بل هم أحرار كطيور السماء وما من قوة فى الوجود تستطيع أن تستدرجهم الى مكامن الخوف والذلة والخضوع واذا كان عبد الحليم قد ربى فى هذه الاسرة واحتمل من غطرستها ومن بلاياها الكثير فانه اليوم قد مزق بأظافره ورقة عبوديته وأضحى انسانا له كيانه وله شخصيته وله مكانه فى عالم الاناس .

وقال ناظر المدرسة مفاخرا :

— ألم يقل جمال عبد الناصر «ارفع رأسك يا أخى فقد مضى

عهد الاستعباد» ، فلماذا لا يرفع عبد الحليم رأسه ويقف أمام هذا المتغطرس الوغد وقفة الرجل أمام الرجل ؟

والعجيب أن ناظر المدرسة كان لا يخاف أحدا فى الوجود كما كان يخاف من هذا السيد الذى تضمه لعمدة القرية قرابة اذ كان شريرا بطبعه وكان ناظر المدرسة اذا رآه ينهال عليه بالتحيات والتعظيمات كما لو أنه سجين يتملق مدير السجن .

أما اليوم فقد وجد ناظر المدرسة فى نفسه القدرة على أن يقذف فى وجه هذا السيد المتغطرس بتلك الكلمة الجميلة التى علمها قائد الشعب لابناء شعبه فأصبحوا يرددونها فى كل زمان ومكان .

وجاء فريق من أهل القرية يبدى لومه واستنكاره لما صنع عبد الحليم متأثرين بماضيهم المظلم كما لو أنهم مرتبطون به لا يقوون على الفكاك منه ولم يكن هذا مجاملة منهم لقريب العمدة ، بل كان مجرد اظهار لما يعتمل فى نفوسهم القلقة الخائفة .

ووجد العمدة نفسه مرغما على أن يمسك بزمام غضبه ولو أن هذا حدث فى الماضى لما احتاج الامر الى أكثر من رصاصة تنطلق من بندقية فتستقر فى صدر عبد الحليم أو فى رأسه ويجىء عشرات من الشهود يقسمون أغلظ الايمان على أن الفاعل مجهول .

أما اليوم فقد تبدلت الحال غير الحال .. وأضحى لامثال عبد الحليم هنا النكرة المستضعف شأن وأى شأن فلو مسه سوء لعوقب الجانى ولو كان يخفى التاج تحت عمامته .

وأبلغ النبأ الى صاحب السعادة فاغتم له أشد الاغتمام وأضافه الى الكميات الهائلة التى كان يعتبرها من منغصات حياته ومع أن هذا الحادث لا يعنيه فى قليل ولا كثير الا أنه استشف من

ورائه حقيقة مصيره التعس وسط هذه المجموعة من القرويين التى ما كان يعيرها التفاتا فى الماضى وأصبح اليوم يسعى الى التقرب منها ويجاهد فى سبيل استرضائها .

وبادر عبد العظيم الى مكان الحادث وهناك وجد خمسة أو ستة من فتية أسرة العمدة يدبرون فيما بينهم معركة تزهق فيها روح عبد الحليم ويصنع بهم القدر بعد ذلك ما يريد .

كانوا من الحمق والرعونة بحيث لم يتدبروا نتائج ما اعتزموا القيام به وكان الذى يسيطر على عقولهم ــ ان كانت لهم عقول ــ أن من واجبهم أن يردوا هذه الاهانة عن الاسرة ولو ذهبت أرواحهم ضحية لما اقترفوه .

على أن عبد العظيم استطاع أن يرد هؤلاء الفتية عن تنفيذ ما دبروه ونصح لقريب العمدة بأن يتقبل الامر على أنه أمر واقع لا حيلة له فى دفعه ، فان مقاومته لا تجدى وما من شىء يمكن أن يجدى عليه نفعا سوى أن يبتلع الاهانة ويسكت .

وناقش قريب العمدة هذا الرأى واشتدت لجاجته كأنما أراد أن يتغافل عن الحادث ذاته باثارة الجدل حوله ليخفف عن نفسه بعض ما اعتراها من أسى واضطراب .

وقال له عبد العظيم :

ــ من الخير أن تدع هذا الحادث يمضى بسلام فلم يعد عبد الحليم هذا عبدا يمكن أن تسجنه فى غرفة مظلمة أو تختطف روحه ولكنه عاد مواطنا له حقوق أى مواطن آخر .

وأحس قريب العمدة فى هذا القول غلظة وجفوة فراح يخفى ما به من استنكار لهذه الكلمات واستبد به الغيظ والحنق حتى أنه جعل يصرخ ويلوح بيديه تأثرا متحفزا .

وعرف عبد العظيم أن صاحبنا يريد أن يستر ضعفه أمام

هذا الحادث باغلاظ القول للذين يحاولون أن يصرفوه عنه وهذه حالة نفسية يعمد اليها ذوو النفوس الضعيفة لاخفاء مشاعرهم الحقيقية وراء ستر من التظاهر بالفظاظة والخشونة والصرخات المحمومة .

أما عبد الحليم فقد وجد كثيرين يعطفون على قضيتـــــــه ويساندونه فى وقفته بل ان منهم من حاول تحريضه على التمادى فى الشر رغبة منهم فى أن يشبعوا هذه الطبيعة الانسانية الخالدة طبيعة التطفل والفضول .

وكاد الامر يفلت من بين أيدى العقلاء ويستحيل الى مجزرة لولا وثبات عبد العظيم هنـــا وهناك ناصحا مستنكرا ما عسى أن يحدث مبينا فداحة الاخطار التى يمكن أن يتعرض لها الفريقـــان فى القرية اذا ما استمعوا الى وسوسة الشـــيطان وانطلقوا فى صراع دموى .

والذى حسم الموقف وهدأ النفوس الثائرة هو خوف العمدة على منصبه فان بقاءه فى هذا المنصب كان هو الضمان الوحيـــد لبقاء ظل تافه من النفوذ والسلطان لاسرته التى يبلغ عدد أفرادها حوالى اربعمائة نسمة .

وبعد ذلك ملأت القرية كلها موجة من الفرح الغامر والتفاؤل المذهل فان أحدا لم يكن يتخيل وقوع ما حدث وحين انعقـــدت المجالس الصغيرة فى المساء فى داخل المنازل وفى خارجها لم يكن للجالسين فيها من حديث سوى ما وقع بين قريب العمـــدة وبين السيد المواطن عبد الحليم عبد الصبور عبد الباسط .

***

انهتز عبد العظيم فرصة العطلة الدراسية فسافر الى القاهرة ليكون على مقربة من الاحداث . وليعرف كل ما يجرى وراء الستار . ولم يكن فى حاجة الى من يرشده الى الطرقات فانه يذكرها جيدا .

وبدت له المدينة الواسعة . كما لو انهـــا أحست التغيير فيه

داخلها ، أو فنلقل أن انفجار مشاعرها وأحاسيسها . بعد أن استهدفت للقهر والعنف والاستبداد قد منحها الرغبة الحقيقية فى أن تنسى الماضى وأن تتلهف على المستقبل لترى ماذا يكون من أمرها فيه .

وفى طريقه الى القاهرة وجد فى الجو غبارا . فأولئك الذين حرمتهم الثورة من أن يكونوا لصوصا مجرمين يسرقون أموال الشعب ، ويدنسون حرماته ، لم يستطيعوا أن يصبروا على هذا (الظلم) الذى حل بهم ، وأولئك الساسة المحترفون ومن خلفهم عشرات الالوف من المرتزقة ، وأولئك الاقطاعيون ومن ينتفعون من خطاياهم وأولئك الذين ربوا مع الاستعمار واشتدت سواعدهم بفضل خياناتهم لوطنهم ... كل أولئك كانوا يجلسون فى وسط الطريق ليعيقوا مواكب التقدم ولينشروا فى الجو سموما من الترهات والاكاذيب .
ى

واستمع عبد العظيم الى أنباء محاولات يبذلها الاستعمار ليثير النفوس ضد الثورة وضد رجالها الابطال . فهؤلاء سائحون وتجار و (مستشرقون) من الانجليز وكلهم يحترفون الجاسوسية . يغشون الاماكن العامة ويهتدون الى مواقع الساخطين وتراهم أسخياء فى بذل الاموال يعطونها بغير حساب .

قال له محام شرعى : ان (مستشرقا) انجليزيا تعشى ليلة أمس فى منزل مؤلف كبير سابق .. كان يستف التراب على عتبة باب السفارة البريطانية ، ودعى الى وليمة العشاء عدد كبير من مؤلفين أخرجوا من وظائفهم بحكم التطهير .. ومن أنصار الاحزاب السياسية البائدة ...

وبدأ المستشرق الانجليزى يتحدث عن نسخة خطية عثر عليها، وهى احدى مؤلفات الغزالى . وانتقل من هذا الحديث عن عصور الاسلام المختلفة حتى بلغ بسامعيه الى هذا العصر .. الى عصر الثورة وهذا هو بيت القصيد ثم ترك الحاضرون يعقبون بما فى نفوسهم من أحقاد وضغائن .

وبعد أن انفض الحاضرون اختلى هذا المستشرق برب البيت وأوعز اليه أن يؤلف جماعة للعناية بالتراث الادبى العربى القديم

على أن يكون هذا هو ظاهرها أما باطنها فانسعى الى اثارة الاضطرابات وترويج الشائعات وبلبلة الخواطر ٠

وعرف عبد العظيم الكثير عن هذه الحركات الخفية التى يرصد لها الاستعمار ملايين الجنيهات فى سبيل ان يجد ثغرة ينفذ منها الى صميم حياتنا السياسية فيفسدها بمكائده ودسائسه ومؤامراته وعرف كذلك ان الثورة فى اندفاعها الى غايتها المحتومة لم تنس هذه الالاعيب الاستعمارية فعملت جاهدة على تحطيمها بكل حزم وقوة ٠

كان عبد العظيم يغشى أماكن كثيرة ويتحدث الى الكثيرين من مواطنيه راغبا فى أن ينتزع منهم أسرار نفوسهم التى أخفوها وكان يحب أن يناقش المسائل الكبرى فى حرية تامة ٠

غير أن البعض من المواطنين كان يتخوف منه ويخشى أن يكون عينا عليه فلا يبوح له بشىء وكان هذا الضعف الذى لمسه فى كثيرين يضايقه ويحنق نفسه حتى كنت تراه فى القهاوى وفى المجتمعات العامة يصرخ قائلا :

ـ لماذا تخفون فى نفوسكم مايجب أن تظهروه ؟ قولوا كل شىء فهذه الثورة ليست ثورة جمال عبد الناصر بل هى ثورتنا جميعا ويجب أن نمضى فى موكبها وليس فى نفوسنا شىء نخفيه وكان صديقه الوحيد فى القاهرة يشهد معه هذه الندوات التى تنطلق فيها نفسه على سجيتها فيحاول أن يصرفه عن الاندفاع فى حماقات قد تضره ولا تنفعه وكثيرا ما جاهد فى أن يسكته ولكن عبد العظيم كان بطبيعته ثائرا وهو الذى عانى من ظلم الاقطاع ومفاسده ما عانى فلا يبالى أن يصرخ فى وجوه الناس بما لا طاقة لهم على قبوله أو احتماله ٠

وكان صديقه يقول له :

ـ ربما حسبوك جاسوسا أو عدوا للثورة فلماذا لا تنجو بنفسك ولماذا لا تبتعد عن هذه المزالق التى قد تقضى بك الى السجن ؟ ٠٠

وكان عبد العظيم يرد عليه ضاحكا :

ـ لست جاسوسا ولست عدوا للثورة ولكننى مواطن أعرف أن هذه الفترة التى تمر بها بلادى هى أخطر فترة مرت بها فى

حياتها الطويلة فاذا لم نتكاتف جميعا ونتعاون على انجاح هذه الثورة وعلى تجنيبها مهاوى الزلل عدنا الى أسوأ مما كنا فيه .

وأحس الناس بضيق مالى هو نتيجة ما حدث عقب حـــريق القاهرة فى عام ١٩٥١ من تهريب عشرات الملايين من الجنيهات الى الخارج ومن اخفاء بعض أصحاب رؤوس الاموال لاموالهم فكان الذين لم يتعلموا الصبر يتركون أفواههم تنبح بالشكوى من هذه الحال وكان عبد العظيم قول للناس الذين يلتقى بهم فى شتى المناسبات :

ـ هذه حال طبيعية كان لابد من حدوثها بعد أن هرب كثير من الاجانب بسبب حريق القاهرة بأموالهم الضخمة الى الخارج وبسبب اخفاء أصحاب رؤوس الاموال لاموالهم ومع هذا فان الانتصار السياسى يعقبــه دائما ضيق مادى فنحن نحارب فى ثورتنــا أعــداء أقوياء يملكون كل شيء ولا يريدون أن يكون لنا شيء فى بلدنا ومن واجبنا أن نفطن الى هذه الشباك التى يريدون أن يصــطادونا بها فنحن اليوم أقوى منهم لاننا تحررنا من الفساد وايماننا يكفل لنا النصر متى سرنا فى الطريق القويم .

على أن الثورة كان من أجمل واجباتها أن تفتح العيون المغمضة بما تقدمه من حقائق ناطقة عما كنا فيه وعما صرنا اليــــه ولم تدع الشعب يتسلى بأكاذيب الخونة بل لقد جذبته اليها وجعلته يتحسس طريقه الى النهوض بيديه وألزمته أن يعرف مواضع سيره واتجاهه .

وكانت الدنيا كلها تتحدث عن ثورة مصر الاعداء والاصــدقاء والمحايدين وانطلقت أكاذيب كثيرة تروى قصصا سخيفة مبتذلة عما يجرى فى مصر وكنا نعيش وحدنا فى هذه المنطقة ومن حولنا اسرائيل فى فلسطين والانجليز فى منطقة القنال وفى كل مكان يجاورونـنـا وهناك خونة من أبناء العروبة أنفسهم يتربصون بنا الدوائر ويقدمون من خياناتهم للاستعمار فى مقابل الرشاوى واستبقاء النفوذ وكان الضمير العالمى قد خدره الاستعمار والصهيونية الدولية حتى أصبح يتلوى تحت وطأة أقدام هؤلاء الطغاة المتجبرين فلم يكن يعنى كثيرا وهو فى غمرة انشغاله باستخلاص قوته وانتزاع سويعــات لمرحه ولهوه بما يجرى فى هذا البلد النائى الذى لونته فظــائع فاروق

ودنسته جرائم الاستعمار وأهدرت كرامته .. سياسة الفساد السياسى والاقتصادى .

وعلى الرغم من هذا كله فان عبد العظيم وأمثاله من المواطنين الاطهار كانوا يؤمنون فى قرارة نفوسهم بأن هذه الغياهب ستنقشع وان وراء هذه الغيوم شمسا مشرقة .

عاد عبد العظيم الى القرية بعد أن استمتع بعطلته الصيفية على النحو الذى يرضيه وتوافد اليه اخوانه يرحبون بمقدمه ويسألونه عن الاخبار وكان قد بلغ فى نفوسهم منزلة لم يكن يرضى عنها حاسدوه بعد آن تقلص نفوذ صاحب السعادة الاقطاعى السابق وذهبت هيبته واختفى سلطانه ..

وروى لهم عبد العظيم أطرافا مماعرفه فى القاهرة وكانت نفوس زملائه مهتاجة تطلب المزيد من الانباء المثيرة وان كانت فى صميمها تخشاها فهؤلاء المواطنون العاديون قد يفرحون بالاحداث المثيرة ويندفعون فى غمارها ولكنهم يتوقفون قليلا ليفكروا فى نتائجها حرصا منهم على أقواتهم وعلى مناصبهم .

وروى لهم كل ما شهده فى القاهرة بأسلوب الداعية المعجب بما شهده وكان من بينهم من يتوق الى أن يستمع الى أنباء محزنة

ورأى صاحب السعادة من واجبه أن يحتفى بمقدم عبد العظيم كما لو انه رئيس وزارة مر بالاقاليم وكان من قبل يخشاه ولكنه يتظاهر بعدم الاهتمام به ومحاولة النيل من شخصه لانه هو الذى يكافح جاهدا فى تحطيم سطوته وسلطانه .

ودعى الى هذه الوليمة ناظر المدرسة ومدرسوها وطائفة من ذوى المكانة فى القرية وأعجب أو لا تعجب فقد دعى الى هذه الوليمة عوضين عبد المتجلى .

وتوافد المدعوون على غير ما كانوا يشعرون فى الماضى عندما يدعون فى وليمة فى قصر صاحب السعادة فحاول بعضهم أن يمزح ويلقى بالنكات المضحكة والمبكية وفيهم من حضر عارى الرأس وهذه جريمة كانت فى الماضى تستحق الموت ومنهم من راح يترنم بأبيات من الشعر ويحاول أن يغنى

وجاء عوضين عبد المتجلى يخب فى ثيابه ويرفع من قامتـه وقد امتلأت نفسه زهوا وخيلاء فتواثب الجالسون يصافحونه فى مودة ولطف واستقبله صاحب السعادة واقفا وكاد ينحنى على يده اظهارا لوفور سروره بمقدمه وأحس الحاضرون جميعا المعنى العميق لهـذا الانقلاب المفاجىء لا فى حياة عوضين عبـد المتجلى وحسب بل فى حياتهم كلهم فانهم لم يعودوا مجرد عمـال تدب فى الارض وتطؤها الاقدام ولكنهم أصبحوا عمالقة .

وجلسوا الى المائدة فى مرح وبشر وتألقت فى عيونهم هـذه النظرات التى توحى بحدوث الانقلاب فى داخل نفوسهم كما لو أنهم أصبحوا سادة هذه الارض التى تستقر أقدامهم عليها ولا غرو فان الاطيان التى كان يملكها ذلك الاقطاعى الوغد انتزعها منه الاصلاح الزراعى وأبقى له على مائتى فدان

وتظاهر صاحب السعادة بالبشاشة وهو يرحب بضيوفه وان كانت عواصف الحقد والأسى تكاد تعصف به وهو يرى أولئك الذين لا يساوون لديه حفنة من التراب يجلسون فى حضرته جلسة الند للند ويتطلعون اليه بعيون كلها تحد وقح

وسأل صاحب السعادة عبد العظيم عما رآه فى القاهرة وعما اذا كان ابطال الثورة يتنازعون فيما بينهم مناطق النفوذ والغنائم والاسلاب

وقال صاحب السعادة :

ـ اننى سمعت شائعات عن هذا ولا أصدقها

وقال عبد العظيم :

ـ منذ قامت الثورة والاراجيف تغمر هذا الوادى وليس هناك ما يمكن أن يسمى حقيقة الا أن الثورة ماضية فى طريقها تهدم وتبنى وتقاوم الفساد والطغيان وتجاهد فى أن تنشىء حياة جديدة مستقرة

واتكأ عبد العظيم بمرفقه الى المائدة وتطلع الى وجوه الحاضرين ثم قال :

ـ لو أن أبطال الثورة كانوا يرغبون فى مغانم الحكم وسلطانه

لما رضوا أن يجىء على ماهر ليتولاها ولألفوا وزارة من بينهم تضطلع بأعباء الدولة ولكنهم أخفوا نفوسهم وتركوا غيرهم يستمتع بمظاهر النفوذ والسلطان وهم كما كانوا فى الماضى يحيون حيـــاة بسيطة لا تعقيد فيها ولم تتبدل مظاهر هذه الحياة فى أنفسهم أو فى بيوتهم لانهم يؤمنون بأن الاخلاد الى مظاهر الترف والرفاهية معناه أن تتوقف الثورة فى مسيرها الى غايتها وأن تخبو هذه الشعلة فتعود حياتنـــا ظلاما فى ظلام كما كنا بالامس ٠

كان يتحدث كما لو انه يلقى درسا وكان مستعموه يستمعون اليه فى شوق وفى حقد وفى احترام فالطبيعـــة البشرية تبغض فى صميمها التفوق وتحاول أن تخفض الرأس الذى يرتفع فوقها وليس ثمة ريب فى أن عبد العظيم كان يدرك هذه الحقيقة ولكنه تجاهلها لان نفسه الصافية تدفعه دائما الى الصفح والى الغفران ٠

وتحدث عوضين حديثا كله مزاح ودعابه واستمع اليه الحاضرون وهم يشجعونه على أن يسترسل فى عبثه ولهوه حتى أحس مأساة ابنه القتيل تعتصر قلبه فصرخ ونهض واقفا وســـدد أصبعه الى صاحب السعادة قائلا فى صوت كدوى الرعد :

ــ هذا هو القاتل وأنا ٠٠٠ وأنا أدعى الى طعامه بعد أن دفع ثمن ابنى !٠

أما صاحب السعادة فقد اصفر وجهه واضطربت أعصابه وزايلته قوة الجلد والاحتمال فلم يعد قادرا على أن ينطق بحرف وان كان قد جاهد جهود اليائس المستميت فى أن يتكلم وخيم الوجوم على الحاضرين فى لحظة عنيفة قاسية كما لو انهم أمام شبح الموت نفسه وكما لو ان ابن عوضين عيد المتجلى قد برز أمامهم والرصاصة مستقرة فى جمجمته ٠

وتدارك عبد العظيم الموقف فوثب من مكانه وأمسك بعوضـين يهدىء من ثائرته ويتحدث اليه حديثا ناعما رقيقا يثنيه عن اصراره على اثارة هذه الفضيحة فاستكان عوضين اليه وجلس على كرسيه يبكى فى صمت أليم ٠

واستطاع صاحب السعادة أن يسترد أنفاسه اللاهثة وأن يسيطر على حواسه فانه حين دعى عوضين الى هذه الوليمة لم يكن يتوقع أبدا

أن يواجهه بهذه التهمة المروعة بل كان يبغى من وراء دعوته أن يزيد في استرضائه واستجلاب مودته وصفحه ..

ولم يعد ثمة ما يدعو الى بقاء هؤلاء المدعوين وبدا ناظر المدرسة مهموما كما لو انه ضبط متلبسا بجريمة قذرة يمسح بيده على عمامته وعلى حزامه ويجذب طرف جبته وتمنى فى هذه اللحظة انه لو لم يكن من شهود هذه الفضيحة الشنعاء .

ثم غادر المدعوون قصر صاحب السعادة وهم يلقون التحية فى خفوت وأقدامهم تطأ أرض الممرات فى حذر ورفق حتى كادوا يجتازونها ركضا .

وكان عبد العظيم هو آخر من غادر القصر ودعته سماحة نفسه الى أن يقف قليلا فيشد على يد صاحب السعادة ويحييه فى عطف فانه لم يكن من ذلك الطراز من الناس الذين يضمرون فى قرارة نفوسهم الشماتة للضعفاء .

***

ومضت الشهور والايام .

وبذل رجال الثورة جهودا مضنية فى مفاوضة الانجليز على اتفاقية السودان واستطاعوا أخيرا أن يضمنوا للقطر الشقيق استقلاله وحريته ولولا ذلك لكان على السودانيين أن يجاهدوا عشرات السنين فى سبيل الوصول الى ما يطمعون فيه من سيادة وعزة وكرامة .

ومضت الشهور والايام

وبدأ رجال الثورة يفاوضون الانجليز على الجلاء عن مصر ومن ومن المعروف عن الانجليز انهم شعب تجارة تفننوا فى المساومة وابتغاء الربح من طريق المماطلة والتسويف

غير ان جمال عبد الناصر كان قد خبر الاستعمار وعرف وسائله وأساليبه فوقف فى حزم وقوة يخير الانجليز بين آمرين اما الجلاء واما أن ينطلق اثنان وعشرون مليونا من الفدائيين المصريين ليرغموا جيوش الاحتلال على الفرار .

وتمت اتفاقية الجلاء بعد أن سلم الانجليز حقنا فى سيادة

أرضنا ووطننا واستقبل المصريون هذا النبأ فى فرح ينطوى على ما يمكن أن يسمى خيبة أمل فانهم كانوا يريدون أن نخرج الانجليز فى حرب شامله بيننا وبينهم لا أن يتركونا بعد أربعة وسبعين عاما فى سلام ٠

وكانت قرية الشيخ سند تتلقى أنباء هذه الانتصارات وغبطتها أشد ما تكون فى القرى الاخرى التى خلت من الاقطاع ذلك أن بقاء الانجليز فى مصركان يشعرهم فى سويداء قلوبهم بالتخوف من عودة الاقطاع مرة أخرى لان الانجليز هم الذين أيدوه وأقاموا له صروحا وجعلوا من ملايين المصريين عبيدا لأفراد قلائل من الاقطاعيين

أما ناظر المدرسة فقد تحول شعوره من النقيض الى النقيض اذ أصبح وطنيا متطرفا ولم يعد فى حاجة الى أن يستجدى عطف صاحب السعادة عليه أو المباهاة بصداقته بعد أن تحطم هذا الصنم وأصبحت شظاياه فى الطرقات تدوسها الاقدام ٠

وكان يلقى عبد العظيم بوجه غير الوجه الذى يلقاه به فى الماضى فهو باش فرح لا تكاد الدنيا تتسع لمفاريح قلبه وقد جعل منه هاديا ومرشدا فى كل شىء حتى فى نفقات منزله فهذا الرجل التافه الذى كان يعيش على صداقات موهوبة والذى كان يذل نفسه لكل من يعتقد انه ذو نفع أو ضرر أصبح لا يبالى هذه الحماقات وهو يفارقها اذ استمدت نفسه الضعيفة الرخوة قوتها من عظمة هذه الثورة التى اكتسحت المدن والقرى وشملت جميع المصريين على السواء ٠

وكانت اسرائيل قد بدأت تلعب بالنار فانها تدرك تمام الادراك حقيقة الثورة فى أكبرقطر عربى وهى تريد أن تأمن من مغبةسكوتها على ما يجرى فى وادى النيل فراحت تتسول الاسلحة من انجلترا ومن فرنسا ومن أمريكا لتقوى نفسها وتستعد لموقعة فاصلةبينها وبين مصر حتى تضمن لنفسها استكمال تحقيق أمانيها الفاشلة ٠

وعرفت مصر هذا كله وعرفت انها فى حاجة شديدة الى السلاح التى تدافع به عن نفسها وعندئذ دخلت فى مفاوضات مريرة قاسية مع انجلترا وفرنسا وأمريكا لتمدها هذه الدول بالسلاح كما أمدت به اسرائيل ٠٠

غير أن الاستعمار هو الاستعمار دائما فاسرائيل التى لم تدفع ربما واحدا تعطى من السلاح ما تريد ومصر التى تقدم الثمن بيد وتريد أن تحصل على السلاح باليد الاخرى تحرم منه وتفشل مفاوضاتها بسبب ما يريده الاستعمار من جرها الى أحلاف تقضى على استقلالها وحريتها الى الأبد .

وكان أن اتجه جمال عبد الناصر الىالكتلة الشرقية فتمت صفقة الاسلحة التشيكية وأصبح العالم كله وكأنه فى فوهة بركان ثائر ولم تخجل انجلترا ولا فرنسا ولا أمريكا من أن تحمل على مصر حملات ظالمة لانها اشترت سلاحها من الكتلة الشرقية ، وهى التى رفضت امدادنا بالسلاح من قبل .

ووقفت مصر صامدة لا تهتز ولا تضطرب أمام هذه الحملات وأوضحت حقها فى أن تتسلح دفاعا عن نفسها من غدر اسرائيل .

وفى مجلس فى قصر صاحب السعادة جرى الحديث حول هذه الصفقة واختلفت فيه الآراء وتباينت النزعات .

وقال موظف مفصول بحكم التطهير وهو لا يخفى المرارة فى فمه القذر :

ـ اراهن على أن انجلترا وفرنسا وأمريكا لن تسكت عن محاربتنا بعد أن عقدنا الصفقة مع الكتلة الشرقية .

وحاول صاحب السعادة أن يبدى رأيا ولكنه خشى أن يقول ما لا يجب أن يقال فى هذه المناسبة بل لعله خشى أن يتأول البعض ما يقوله ولو كان فى صالح الصفقة مما قد يجر عليه المتاعب والويلات .

وعندئذ لم يسعه الا أن يلوذ بالصمت وآثر أن يكون فى هذه الجلسة مستمعا فان السلامة فى هذه الظروف فى أنيخرس لسانه ولا ينطق بما يجيش فى صدره من عواطف ومن أهواء ومن نزعات

واستبدت الحماسة بناظر المدرسة فصرخ من أعماق قلبه قائلا :

ـ ما هذا الذى تقوله ؟ ما الذى يجعل هذه الدول تحاربنا

ونحن لم نعتد على أحد بل أردنا أن نقوى أنفسنا ونستعد للدفاع عن كياننا اذا ما تعرضنا للغزو من عدوتنا اسرائيل ؟

وقال أحد المعلمين المجهولين الذين لم يكن يسمع لهم صوت من قبل :

ـ نحن لها ولن يضيرنا شيء فما الذى يحدث لو حاربتنا هذه الدول مجتمعة ؟ .

وأعجب عبد العظيم بما سمع ولاول مرة ينطلق على سجيته فيظهر موفور ابتهاجه بهذا التحول العجيب الذى احسه ولمسه فى كثير من الشخصيات فى هذه القرية ورأى من واجبه أن يقول شيئا فلوح بيده ورفع من رأسه ومضى يتحدث .

قال :

ـ انه ما كان يتسنى لمصر أن تخرج من أزمتها الا بهذا الاجراء الحازم الجرىء وتعالوا بنا نتناقش فى هدوء فان الدول الاستعمارية ما كانت تعطينا سلاحا مهما ألححنا فى الطلب والرجاء فان سياستها ترمى الى تقوية اسرائيل لتخضعنا تحت سيطرة الماضى المظلم الكئيب ..

واستطرد عبد العظيم قائلا :

ان هذه الصفقة كان من الطبيعى أن تثير حفيظة الاستعمار ضدنا ولكننا لم نربح بها سلاحا حديثا نقاوم به أعداءنا وحسب بل ربحنا تأييد كتلة ضخمة من الدول هى الكتلة الشرقية .

وسأل طالب أزهرى معروف بحبه للمجادلة والحذلقة :

ـ هل معنى هذا أن نصبح شيوعين ؟

وبادر عبد العظيم :

ـ كلا .. لن نصبح شيوعيين ولن نصبح غربيين فنحن مصريون قبل كل شيء وقد جاهر جمال عبد الناصر بهذه الحقيقة التى لا تحتمل الشك ولا التقاويل وهى أننا «نصادق من يصادقنا ونعادى من يعادينا» وبهذه الجملة الخالدة انفض المجلس وكل واحد من حاضريه منصرف الى خواطره يستمتع بها كما يشاء .

إلى السّجن

استدعى وكيل النيابة ممدوح «نجل صاحب السعادة» وتلقى عامل التليفون هذا النبأ كما لو أنه تلقى نبأ حريق شب فى القرية فأهلك أهلها أجمعين وراحت القرية تحفر بألسنتها على الارض طريقا للاشاعات .. فمن قائل أن رسولا جليل الشأن حضر من القاهرة ليشرف على التحقيق .. وقد رآه الراوى رأى العين .. ومن قال ان العقوبة المقترحة الاعدام.. وأقسم بسطاوى أبو سعود انه رأى مأمور المركز يختبر بنفسه أعواد المشنقة .

وجاء نبأ فى مطلع الليل .. ان ممدوح لن يذهب الى النيابة فقد مضى والده الى هناك وقدم اقرارا من عوضين بتنازله عن حقه .

وبدأت أسهم صاحب السعادة ترتفع وذهب أهل القرية جميعا الى القصر ينحنون على يد صاحب السعادة ويلثمونها .

وظل عبد العظيم مسهدا يفتت بأصابعه دموع قلبه المتحجر من مآقيه أو يمكن أن يقع شىء من هذا القبيل فى عهد الثورة .. أتخون الثورة نفسها ؟ أتسمح لصعلوك كهذا أن يتدخل فى القضاء بنفوذه ؟ ان عوضين قد قبض عشرة الاف جنيه ولكن الجريمة جريمة والنيابة صاحبة الشأن الاكبر فى طلب القصاص .. وظل الذين أطلقوا ألسنتهم بالسوء يرتعدون من الخوف والفزع .وأعد الكثيرون منهم عدتهم للهجرة فى الصباح الباكر فلا طاقة لهم على احتمال غضب صاحب السعادة ، وبماذا عساهم يبررون حماقاتهم التى اقترفوها ، لقد قالوا عنه كل شىء .

قالوا عنه أنه لص وفاسق وطاغية أى أنهم — بكل بساطة —

وصفوه على حقيقته وجردوه من ثيابه وأطلقوه بينهم عاريا كما ولدته أمه .. ثم ألصقوا به التهم الشنيعة فالثياب الانيقة وحدها هى التى تستر الرذائل .

وجاء الصباح . فاذا بجندى البوليس ينتهر العمدة لانه لم يرسل نجل صاحب السعادة وأخذوه مكبلا بالاغلال ، فقد أصر الجندى على أن يتخذ هذا الاجراء .. ولما سار صاحب السعادة مع ولده بقى الجالسون فى أماكنهم جلوسا مع أنهم كانوا اذا تخيلوا قرب مروره بادروا الى الفرار .

والعجيب أن صاحب السعادة رغم ما هو فيه من أسى وحزن وقنوط أحس هذه الظاهرة . ظاهرة عدم وقوف الجالسين اجلالا له وتعظيما فعرف أنها النهاية .

وتوالت المصائب على الطاغية الجبار وعاد الذين هاجروا منذ سنوات لينبشوا قبور الماضى ويخرجوا منها جثث الشهيدات والشهداء .. ولم يعد وكيل النيابة قادرا على أن يتولى وحده التحقيق فى هذه الحوادث فندبوا له زميلا .

وقال ناظر المدرسة لعبد العظيم :

ـ قضيت طوال حياتى أبغض هذا الرجل ـ يعنى صاحب السعادة ـ وأحتقره ولكنى أردت أن أسايره اتقاء لشره .

وضحك عبد العظيم ..

وقال المدرس الشاب عبد العزيز حسنين :

ـ يا حضرة الناظر ..

ونظر اليه بعينيه نظرة ذات مغزى وضحك جميع الحاضرين .

وفى ليلة ٢٣ سبتمبر آوى صاحب السعادة الى فراشه

والحمى تكويه بنيرانها المشبوبة وطلب اليه زوجته لتواسيه فى مرضه الخطير .. ولكنها لم تحضر فان صاحب السعادة الكلب ـ لولو ـ مريض يئن ويتوجع .

ومضت ساعات الليل بطيئة متثاقلة وفى كل لحظة ترداشاعة جديدة .. وكانت نوبات الحمى تثقل على صاحب السعادة ، وتراءت له فى الاحلام صور زوجاته الا زوجته نعمات ـ وكان ثمة طيف غامض أحس أنه طيف ولده ممدوح .

وشهد فى أحلامه مصارع أعدائه جميعا ، وخيل اليه أن قلبه يهبط .. ويهبط .. وامتلأت ساحة فسيحة بأشباح فتيات جميلات .. ولما اقتربن منه تبين أنهن ضحاياه من فتيات القرية .

ولم يبد له عبد العظيم قط فى نومه ، وان كان قد تمنى أن يراه .. وظهرت أمامه صورة وكيل النيابة يشعل سيجارة ويسعل ثم يسدد اليه نظراته القاسية كأنه يريد أن يفترسه .

وكان المريض يستيقظ خائفا وجلا يصرخ ويهرع اليه الخادمات مضطربات لا يدرين ماذا يصنعن وأغرق العرق ثيابه وما على الفراش من أغطية وكن يبدلن كل شيء والمريض يصرخ كما لو أن شخصا يحاول أن يقتله .

وفى أخريات الليل جاءت خادم لتوقظ صاحب السعادة وتبلغه نبأ محزنا .. ان الكلب لولو قد مات وسيدتها تمزق وجهها بأظفارها حزنا عليه ..

وحاولت الخادم أن توقظ صاحب السعادة بلطف ، فلم تستطع وجعلت تهزه من كتفه وظلت بضع دقائق تحاول ايقاظه حتى عرفت أنه قد مات .

ولم تدر الخادم المسكينة أيهما أحق بالحزن عليه .. صاحب السعادة لولو أم صاحب السعادة على بهجت باشا ؟

كل ما استطاعت الخادم أن تدريه هو أنها كانت تتخيل نفسها فى هذه اللحظة وكأنها قد تحررت من أغلالها .

ومن قيودها ..

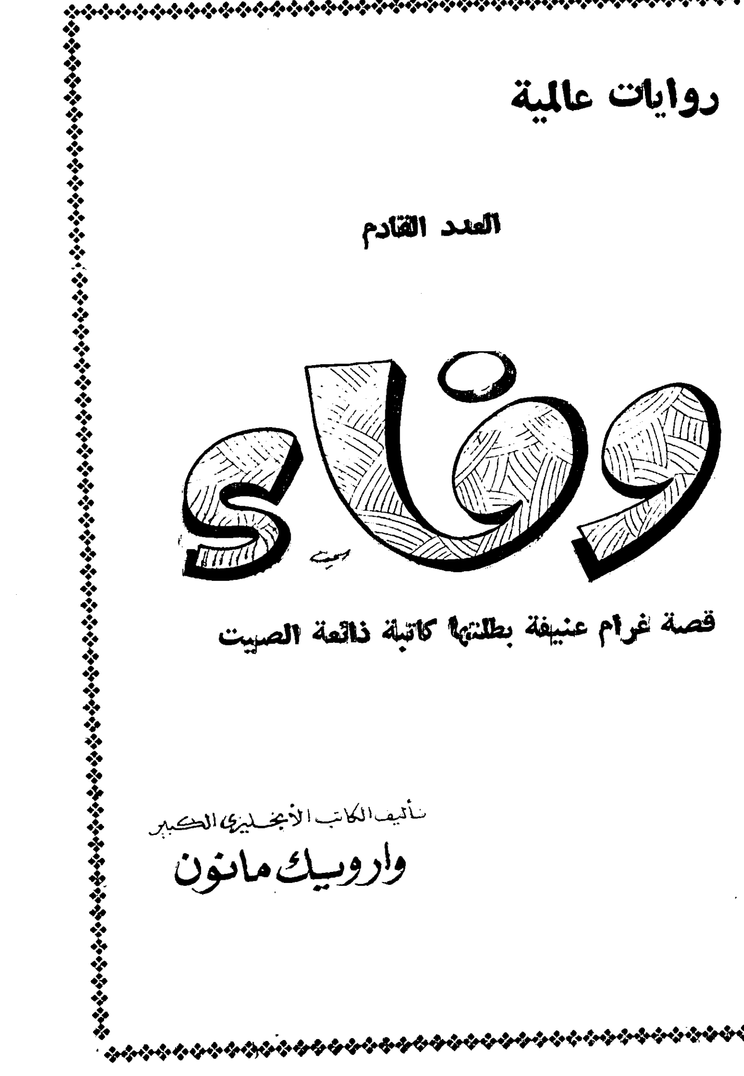
انها أول مرة تستطيع أن ترفع صوتها بغير كلمة ـ سيدى ـ أو سيدتى ..

لم يعد لها سيد ولا سيدة
لم يعد هناك لولو ..
واستدارت الخـــادم ..

وانطلقت خارج القصر حرة .. كأمها مصر ..

روايات عالمية

العدد القادم



قصة غرام عنيفة بطلتها كاتبة ذائعة الصيت

تأليف الكاتب الانجليزي الكبير

وارويك مانون


١٩
بوصة
أروع ما انتجته
مصانع شركة النصر للتليفزيون
على أحدث طراز عالمى

هيئة قناة السويس

هكذا تعبر السفن القناة

١ ــ الاخطار باقتراب السفن من مدخلى القناة .

تقوم السفن المتجهة صوب أحد مدخلى القناة ، عند بلوغها مدى الاتصال ، باخطار وكلائها لاسلكيا بمعلومات عن اسم السفينة وجنسيتها وعن اعتزامها عبور القناة أو مجرد التوقف فى الميناء والموعد المحتمل لوصولها ومدة توقفها ، وما اذا كانت تحمل مواد خطرة ، وبأية معلومات أخرى تفيد فى تحديد مركز الربط المناسب للسفينة داخل الميناء . ويبلغ الوكلاء بدورهم هـــذه المعلومات الى الهيئة واذا كانت السفينة تحمل مواد خطرة وجب تقديم الاخطار قبل وصولها بأربع وعشرين ساعة على الاقل .

طبع بمطابع

الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبيد بروض الفرج
تليفون ٤٥٣٤٦ ــ ٤٥٤٠٥ ــ ٣١٦٢٥
(فرع الصحافة)

تليفون : ٨١٣١١٩/٨١٣٠٣٤/٨١٣٢١٤/٨١٣

المصحح : أ · ى



١٥٧ شارع عبيد ــ روض الفرج
تليفون : ٤٥٣٤٦ ــ ٤٥٤٠٥ ــ ٣١٦٢٥

العدد ١٥٦ الثمن ٦ قروش